الرّحلة النجديّة

تاليف المقدم

عاتق بن غيث البلادي

الرحلة النجدية

تأليف

عاتق بن غيث البلادي

الطبعة الأولى

منشورات
دار المجمع العلمي - جدة

المقدمة

يختلف أدب الرحلات عن غيره من الانتاجات الفكرية ، ويختلف أسلوبها وطريقة عرضها وتقديمها عن أسلوب البحوث العلمية والعطاءات الفكرية الأخرى ، فهي خليط عجيب ممزوج من المشاهدات والانطباعات والاجتماعات والمحادثات ، وتختلف فيما بينها باختلاف مزاج كتابها وأسلوبهم وطبيعة أنفسهم •

فقد تأتي جادة متزمتة تقدم الجزل من المعلومات ، غير ملتفتة لغيرها،وقد تكون هازلة متلصصة لكل مايثير الانسان ويرضي فضوله ، وقد تجيء تصويراً صادقاً لكل ما يرى ويسمع ويأكل ويشرب وينام ويستيقظ ذلك الرحال ، وهذه أيضاً تتأثر بمدى شفافية الكاتب الفكرية ومدى دقة ملاحظاته ومعرفته لما يشتهيه القارىء المتتبع للرحلة ، ومدى قدرته على التصوير الطبيعي والاجتماعي لمشاهداته وملاحظاته •

وللرحلات أغراض :

فقد تكون الرحلة علمية مقصودة للبحث والتحري عن معلومات خاصة ، وقد تكون هواية ونتيجة رغبات ملحة لمشاهدات جديدة ، ومقابلات مقصودة •

وقد تكون مفروضة كمناسبة الانتقال ، ونحو ذلك •

ومن ثم كان على الكاتب الواعي أن يسجل ملاحظاته وما مر به في تلك الرحلة ، وكم من كنوز العلم مر بها مرتحل فضاعت بسبب الكسل أو عدم القدرة على التسجيل أو الرغبة في ذلك ، والعجز عن المتابعـــة .

والرحلات من أشد الانتاج الفكري ارهاقاً ، فهي مشاهدات مسافر متعب ، ومعلومات جديدة تستدعي مباشرة الكتابة في حينها ، وأي تأجيل للكتابة يفقد الرحال معلومات لا تعوض ، من هنا كانت مرهقة فتحاشاها الكثيرون ، ومن هنا ــ أيضاً ــ جاءت مرغوبـــة يتشوق إلى متابعتها الكثير من القراء .

وهذه الرحلة ــ في قلب نجد ــ جاءت نتيجة عوامل شتى ، منها : إنني ظللت أحن إلى مشاهدة هذه الأرض الواسعة الحبيبة من وطننا العزيز ، والتي طالما تغنى الشعراء بطيب هوائها وثراء مراعيها ، ونقاء هوائها ، وقد خرجت الكثير من فحول الشعراء وضربت الأمثال بسعتها، ومن الشعر المشيد بفضل نجد قول الأعرابي :

ألا أيهـــا البرق الذي بات يرتقي
ويجلو ذُرى الظلماء ذكرتني نجدا
ألـــم تـــر أن الليل يقصر طولـــه
بنجـــد وتزداد الرياح به بـــردا ؟

وقول آخـــر :

سمعتُ رحيل القافلين فشاقني ،
فقلت اقرؤوا مني السلام على دَعْد
أحـــن إلى نجـــــد وإنـــي لآيس
طوال الليالي من قفول إلى نجـــد

تعزّ فلا نجـد ولا دعد فاعترف
بهجر إلى يوم القيامـة والوعـد

وقول الآخر :

لعمـري لمكّـاء يغني بقفـرة[1]
بعلياء من نجـد علا ثـم شرقـا
أحب إلينـا من هديـل حمامـة
ومن صوت ديك هاجـه الليل أبلقا

وقال آ خر :

فيا حبـذا نجـد وطيب ترابـه
إذا هضبته بالعشي هواضبـه
وريح صبا نجـد اذا مـا تنسمت
ضحى أو سرت جنح الظلام جنائبه

وقال آ خر :

سقى الله نجـداً من ربيع وصيّـف
وماذا ترجّى من ربيع سقى نجدا ؟
بلى إنـه قـد كان للعيس مرّة
وركناً ، وللبيضاء منزلـة حمدا[2]

وقال جعدة بن معاوية القشيري :

تمتع من شميـم عـرار نجــد
فما بعـد العشيـة من عـرار[3]

ومع انني شاهدت كثيراً ما بين مكة والرياض وما حول الرياض ،

(١) المكاء : طائر له صفير جميل ٠
(٢) عن معجم البلدان « نجد » ٠
(٣) المجاز : ٢٠٢ ٠

غير أنني لأول مرة أشاهد القصيم ، والزلفي ، والمجمعة ، وحريملاء والعينية ، وغيرها ، ولأول مرة أدون عن هذه المناطق .

ومنها إن معظم الذين كتبوا عن هذه الأرض لم يسلموا من الأخذ من مراجع كانت قد دونت بالأحرف اللاتينية ثم ترجمت إلى العربية ، وهذا المنحى هو اليوم نكبة الجزيرة العربية ، فالصاد تقلب سيناً ، والهاء تقلب حاء ، فتتغير الأعلام تغيراً سيئاً ، فمترجم أحد هذه الكتب ترجمة قبيلة هيثم إلى حطيم ، وبلي الى بالي ، والصواعد ــ من حرب ــ إلى سويد ، وغيرها وغيرها .

فحرصت هنا ــ مع اختصار هذه الرحلة ــ على أن أسجلها بلغة القرآن ، ضابطاً ما يحتمل حدوث الاشتباه فيه ، غير آخــذ عن تلك المصادر ولا ملتفت إليها .

ولست أدعى أن المنطقة التي مرت فوقها رحلتي لا تزال بكراً ، فقد علمت أنه سبقني ثلاثة اخوة نجديون إلى تغطية المنطقة جغرافياً ، وهم : ابن خميس في « المجاز » وابن جنيدل في « معجم نجــد » والعبودي في « معجم القصيم » ومع أن المعجمين لم يطبعا على حد علمي فاني متأكد بأنهما سيخرجان إلى الوجود إن شاء الله .

غير أن هذه الرحلة تختلف اختلافاً تاماً عن كل ما تقدم ، فالمعاجم تعطي وصفاً لقطع من الأرض منفصلة عن بعضها ، وابن خميس في المجاز رغم شمول كتابه لمنطقة ما بين مكة والرياض وتوسعه واحتوائه ، كانت تنقصه النظرة إلى عرض المدن والقرى عرضاً تصويرياً ، ولــم يعتن بالمسافات بينها ، والمسافات والاتجاهات ــ كما يعلم الجغرافيون ــ هي البديل عن الخريطة .

ولم يتعرض ابن خميس لتفصيل القبائل في المنطقة ـ الجغرافية البشرية ـ على أهمية ذلك •

واذا جاءت هذه الرحلة مختصرة فاني حاولت أن أقدم فيهـا الجوهر واللباب، مبتعداً عن الاسهاب الممل، فمعلوماتها مركزة تقريرية، واذا جنحت إلى الناحية الاجتماعية كمقابلات أولئك الأخوة والأدباء ورواد الفكر ، ودردشات أبي راشد وجوزاء وهمام وأبيه ، فانما هي صورة الحياة ، ولا أرى مأخذاً عليها بقدر ما تسلط ضوءاً على الحياة الاجتماعية في المملكة العربية السعودية اليوم •

وبعـد •••

فهذا جهد خاص، ورغبة في المساهمة في التعريف ـ ولو بايجاز ـ بمنطقة واسعة من أرضنا الطيبة الدرور ، بما فيها وعليها من مدن وقرى وسكان ـ حضراً وبدواً ـ وحركة فكرية ومادية،حرصت أن أكون أميناً على إيصالها إلى القارىء بلا رتوش ولا مبالغات ولامحسنات ، فالحقيقة أهم من ذلك كله • والتكلف والاقحام يفسد أكثر مما يصلح •

وإن لم ترض البعض فحسبي منه أن يرى من قراءتها بأنها موقوفة على المشاهدة والاحتكاك الفعلي ، والالتزام مانع ما عدا ذلك •

والحمد لله حمد الشاكرين ، وأسأله التوفيق •

المؤلف

١

بين المدينة والرياض

في يوم ٢١ محرم سنة ١٣٩٦ هـ الموافق ٢٢ كانون الثاني ١٩٧٦ م تلقيت مذكرة تفيد بأنه صدر قرار نقل خدماتي من وزارة الدفاع الى وزارة الداخلية مديرية سلاح الحدود ، تظاهرت بأني سررت لهذا النبأ بينما كان وقعه عليّ أليماً،فقد قضيت حتى الآن مايقرب من أربع وعشرين سنة في الجيش حيث التحقت به في سنة ١٣٧٢ هـ فألفته وتشربت بروحه العسكرية البحتة ، ولا أعدو الحقيقة اذا قلت : انني كنت أحلم بأن أصل إلى قيادات أعلى مما أنا فيه فأنا دائماً في طليعة اخواني في الدراسات أو المساهمات العملية .

وكانت تقفز إلى ذهني بين حين وآخر صورة زميل لي قديم هو الفريق عبد الله آل الشيخ مدير سلاح الحدود اليوم ، فقد تزاملت وإياه في دورة بمعهد اللغات بالرياض لمدة سنة تخرجنا على أثرها من قسم اللغة الانجليزية،وكان يصل تفكيري بين حين وآخر إلى أن سعادته قد اختارني شخصياً لمعرفته إياي ، وكانت الأماني انه إذا لم يكن قد اختارني فاني لن أعدم فيه تقديراً وتعييناً لا يهضمني حقي .

بين هذه الأحاسيس والرؤى وتشتيت الذهن في خواطر وسوانح تمر قاتمة حيناً ومشرقة حيناً آخر قررت أن أستفيد من هذا الحدث ، فأنا معني كل العناية بدراسة الجزيرة العربية بل وكل بلاد العرب ، اذاً في الامكان القيام برحلة برية الى الرياض والعودة عن طريق مكة ، وهكذا قررت .

بدء الرحلــــة :

في ٢٣ محرم تحركت من تبوك بسيارتي المرسيدس (٢٨٠ س) بعد العصر فوصلت المدينة[١] في الساعة الحادية عشر ليلاً فملت إلى طريق القصيم فنمت عند (مقعد مطير) في نفس السيارة .

على طريق القصيم

تحركت من مبيتي في السابعة صباحاً على طريق القصيم ، وعلى « ٥٣ » كيلاً من المدينة أشرفت على بلدة صغيرة على ضفتي واد عميق ضيق ينحدر من الشمال إلى الجنوب بين جبال سمر ليست بالشوامخ ، هذه البلدة هي :

الصويدرة

بلدة صغيرة عامرة تقع على وادي نجار ــ بالتخفيف ــ وقد يطلق على واديها وادي الصويدرة ، سكانها حرب ، وبها إمارة تابعة للمدينة المنورة ، وبها محكمة شرعية ومدرسة ، يصب واديها في المخالط ثم إلى العاقول فقناة ، كانت تعرف قديماً بالطرف وقد أخذت تنتعش وتتحسن، وصار يتكاثر نزلها وتعمر أراضيها .

وما أن تجاوزت الصويدرة بأكيال حتى ظهر لي من الجنوب فضاء لا يحد النظر فيه ، تلك هي السهول والحزوم الواقعة جنوب الحناكية إلى جبال أبلي على ما يقارب من تسعين كيلاً ، تتخللها أجبل هنا وهناك

---

(١) وصفت ما بين المدينة وتبوك في رحلة بين المدينة وعمان ، فكرهت التكرير .

ضماضع ، وتجري فيها فروع وادي أضم حيث تتجمع جنوب الصويدرة في حضوضى ثم تدفع في « الخَنَق » ثم تمر بسد العاقول فوادي قَنَاة بين أحُد والمدينة ، وهذا الوادي إذا سال قد يستمر سيله الشهر وأكثر ، وكان يقطع السابلة إلى المدينة من نجد حتى عبدالطريق. أما في الشمال فالجبال تحف بالطريق والحرار تقرب حتى ترى بعضها غير بعيد .

الشُّقْرَة

وعلى « ١٤ » كيلاً من الصويدرة مررت بقُرَيَّة صغيرة تسمى الشقرة ، وهي لبني عمرو من حرب وتقع على وادي الشقرة الآتي ذكره، وبيوتها من الطين يعدها الناظر وبها مقهيان وحانوت أو أكثر ، وكانت الحركة لم تدب فيها بعد .

وادي الشقرة :

واد يسيل من حرة خيبر «حرة النار» من جهاتها الجنوبية الشرقية ثم يجتمع مع وادي الصويدرة « الطرف » المتقدم ووادي نخل في المخالط ثم إلى قاع حضوضى فالخنق فقناة .

وقد جعل بعض المتقدمين الشقرة حد الحجاز من نجد ، ولكنه قول فيه نظر ، إذ أن حد نجد وراء الحناكية وسيأتي .

الحناكية

واصلت سيري ، وفي الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة كنت أقف في الحناكية ، فالطريق هنا معبدة تعبيداً ممتازاً يغري بالسرعة ، ويعتبر — بحق — من أحسن الطرق المعبدة في البلاد العربية على الأقل وتبعد الحناكية « ١٠٠ » كيل شرق المدينة المنورة • توقفت في سوق يحف بالطريق كثير الحوانيت نسبياً قدرتها بالعشرين ، غير انها كانت كلها مغلقة ، فالبلدة لم تستيقظ بعد ، ونظرت إلى البلدة فاذا هي أحياء صغيرة منتشرة في الوادي يغطي بعضها شجر الدوم ، متباعدة حتى تغيب عن النظر ، كان هنالك مقهى يدخله الناس ويخرجون منه فدلفت إليه فاذا عماله من اليمنيين ، فقد وصلت أزمة اليد العاملة حتى هذه القرى النائية •

سألته : ماذا يوجد عندكم « فطور » ؟ قال : بيض وتونة • قلت : فأنا محمي عنها فهل من الممكن الحصول على غيرها ؟ فأشار إلى حانوت بطرف المقهى أخذ صاحبه يفتح الباب قال : « نجيب لك جبنة من عند راع الدكان » • وهكذا كان ، وعند دفع الحساب قال : « ثلاثة ريال » فلم أناقشه في ذلك ، مع انه سعر فاحش ، فبراد الشاي بنصف ريال في جميع المقاهي ، والجبنة لا يزيد ثمنها عن ريال واحد •

وتقع الحناكية في واد فسيح واسع كثير نبات الدوم ،أخذ الوادي يسمى وادي الحناكية ، واسمه القديم« نَخْل » ويشرف عليها من بعد سلسلة جبال رَحْرحان من الشرق الى الجنوب ، وسكانها قبيلة عوف من حرب •

ويقول المعمرون من أهلها : ان الحناكية كانت بئراً في هذا الوادي وكان سكانه قبيلة عنزة فدارت حروب بين قبيلتي حرب وعنزة جلت على أثرها عنزة عن هذه الديار واستولت عليها حرب[1] ثم أخذت تنمو بعد ذلك حتى صارت بلدة وفيها اليوم أمارة تابعة للمدينة، ومدرسة متوسطة ومدرسة ابتدائية للبنين وأخرى للبنات ، ومن القرى التابعة لها « النخيل » بالتصغير .

وادي نَخْل : كجمع نخلة :

واد كبير متعدد الروافد ، كثير شجر الدوم قليل الزراعة ، وقد تقدم مذهب سيله معنا كان من ديار ثعلبة من غطفان ثم صار لعنزة حتى القرن الحادي عشر ثم ملكته حرب .

وخلط ياقوت بينه وبين آخر في طريق مصر فأورد قول المتنبي :

فمرت بنخل وفي ركبها عن العالمين وعنه غنى

وقال كثير :

وكيف ينال الحاجبية آلف بيليل ممساه وقد جاوزت نخلا ؟

وقيل : على ليلتين من المدينة . وهو صواب .

وقال البكري :

قرية بواد يقال له شدخ ، لفزارة وأشجع وأنمار وقريش والأنصار،

---

(١) فصلت تلك الحوادث في كتاب « نسب حرب » .

وقال ابن حبيب : هي لبني فزارة بن عوف ، على ليلتين من المدينة .

قلت : شدخ جبل لا زال معروفاً غير بعيد من هنا . وقوله : قرية، يدل على قدمها ، ومعنى هذا فانها أما اندثرت وعادت أو أن الرواية بأنها في القرن الحادي عشر كانت مجرد بئر للاستقاء ثم صارت قرية ، هو قول ضعيف .

عَرْجَاءُ

تحركت من الحناكية فصعدت ثنايا واعترضتني سلسلة غير عظيمة الارتفاع تكشح ماءها الغربي جهات الحناكية ، ويذهب الشرقي إلى نجد ، وهي على قرابة ثلاثين كيلاً شرق الحناكية ، هذه السلسلة يمكن أن تعتبر الحد بين الحجاز والقصيم أو بالأصح نجد ، ذلك على قاعدة أن ما سال غرباً إلى المدينة حجازي ، وما سال شرقاً نجدي . وعلى « ٨٤ » كيلاً من الحناكية شرقاً أي « ١٨٤ » كيلاً من المدينة وصلت بلدة ليست عامرة فيها مقهى ومبان ضئيلة ، هذه تدعى عَرْجاء ، وكانت بئراً فعمرت ، وفيها اليوم مركز امارة ومدرسة ، وسكان هذه النواحي بنو عمر والفُرْدة وعوف . من حرب[١] .

---

(١) فصلت بطون حرب وأخبارها وديارها في كتابي « نسب حرب » .

النَّقْرَة

واصلت سيري على طريق حسنة كنت أرى العداد يصل الرقم « ١٧٠ » وعلى « ٥٦ » كيلاً من عرجاء وصلت بلدة صغيرة أعمر من سابقتها وأكثر سكاناً ، فتوقفت للتزود بالوقود فوجدت عامل المحطة من السكان فسألته عن السكان فقال : بنوعمرو والفردة من حرب ؛ وعرفت أن المحطة لشخص رويثي من بني عمرو وذكر لي أن في البلدة مدرسة ابتدائية ومقترح انشاء متوسطة ، وان أمارة النقرة تتبعها قرى ومناهل منتشرة في الصحراء • وهذه صحراء واسعة قاحلة ذات مفاوز مفزعة قليلة المياه والسكان تبدأ من الحناكية في الحجاز إلىعقلة الصقور في القصيم ، ويبلغ طولها « ٢٢٠ » كيلاً ، كان الناس لا يقطعونها الا قوافل وجماعات ، وجاءت الآلة وعبدت الطرق فاذا الانسان يقطعها في ساعتين أو أقل كما فعلت أنا • وسألت هذا الشاب : أتوجد مدرسة للبنات ؟ فقال ــ بامتعاض وانكار ــ : لالا •

النقرة في كتب الأدب

قال ياقوت : يروى بفتح النون، وسكون القاف، ورواه الأزهري بفتح النون وكسر القاف ، وقال الأعرابي : كل أرض متَصَوِّبة في وهدة فهي نَقِرة وبها سميت النقرة بطريق مكة التي يقال لها معدن النقرة ، وهذا هو المعتمد عليه في اسم هذه البقعة ، ورواه بعضهم بسكون القاف •

وهو من منازل حاج الكوفة بين أضاخ ومأوان ، قال أبو زياد : في بلادهم نقرتان لبني فزارة بينهما ميل ؛ قال أبو المِسود :

فصبحتْ معــدن سوق النقرة وما بأيديها تحس فــتره
في روحــة موصولــة ببكــره من بين حــرف بازل وبَكْـــره

ثم يقول : بطريق مكة ، يجيء المصعد الى مكة من الحاجز إليــه وفيه بركة وثلاث آبار : بئر تعرف بالمهدي وبئران تعرفان بالرشيد ، وآبار صغار للأعراب ، وعندها تفترق الطريق فمن أراد مكة نزل المغيثة ومن أراد المدينة أخذ على العسيلة فنزلها .

قلت : وهذا الطريق الذي سلكته هو الطريق القديم إلى المدينة ، ولما أن عرجاء لا تبعد سوى ٥٦ كيلاً من هنا فأعتقد أنها العسيلة .

بنو حرب

قبيلة خولانية قحطانية،هم بنوحرب بن سعد بن سعد بن خولان؛ كانت مساكنهم كسائر خولان حول صعدة إلى مشارف جازان ، ويحـدد الهداني هجرتهم من هناك بأول القرن الثاني الهجري أثر حروب دارت بينهم وبين اخوتهم الربيعة بن سعد . فساروا حتى نزلوا الحجاز حول الفرع والصفراء فجالدوا مزينة وسليماً وعنزة حتى سيطروا على ما بين مكة والمدينة ، فاندمجت مزينة وقبائل من سليم وكنانة وعنزة في قبيلة

حرب ، وكانت حرب لا تزوج الى حربياً أو قرشياً كما قال الهمداني[١] وفي القرن الحادي عشر كانت القبيلة الوحيدة التي تناصب حرباً العداء هي قبيلة عنزة ، فدرات بين القبيلتين وقائع دامية تسمى «وقائع المجللة» . جلت عنزة على أثرها عن المدينة والقصيم ، فانساحت حرب إلى حدود العراق •

وتمتد ديارها اليوم من قرب القنفدة جنوباً فعلى الساحل الى ينبع فإلى المدينة فقرب العلا ، فمشرقة إلى قرب بريدة ، مشملة إلى ضواحي حائل وإلى لوقة ولينة قرب حدود العراق ، وقد أصبحت هذه القبيلة شعباً لا تعرف حتى بعض بطونه لكثرتها[٢] •

وتنقسم حرب الى :

١ ــ بنو سالم : سكان الصفراء ونواحي ينبع ووادي الحمض ، وبعضهم في نجد ، وتنقسم إلى ميمون ، ومروّح ، ومن كبا بطون ميمون : الأحامدة وولد محمد ، والمحاميد ، وبنو صبح • ومن بطون مروح : الحوازم ــ وأظنهم بقايا غفار ــ والظواهر ، ومزينة ، وهي قبيلة مشهورة •

٢ ــ مسروح ، وهي : زبيد ، وبنو عمرو ، وعوف ، وبنو السفر ، والفردة ، والفهدة ، وبنو علي والوهوب • ومن زبيد : الغوانم أمراء رابغ ، والعسوم أمراء حرب في الزمن الماضي • ومن بني عمرو : البلادية ، وبنو محمد ، ومعبّد ، وبشر ، والعبدة ، والعطور وبطون أخرى عديدة •

ومن عوف : الصواعد ، واللهبة ، واللقامين ، والسهلية •

---

(١)و(٢) لي كتاب خاص « نسب حرب » تتبعت فيه الفروع والبطون الحربية •

عُقْلَةَ الصُّقُور

تحركت من النقرة بعد أن زودت سيارتي بالوقود فأخذت تنهب الأرض ، وليس فيما أرى ما يلفت النظر ، صحراء مستوية تتخللهـا الحزوم ، والأمطار لم تسقط الا من يومين فلم يصب هذه الديار إلا رشاش وديم خفيفة ، وإنما جاءت أخبار المطر على حائل ونواحيها إلى ساق الجواء وهناك .

بدويان في الصحراء :

لم أصادف من ساعة تحركت من المدينة إلى الآن أحداً من سكان البادية ، وها أنا أرى بدوياً وامرأة ترتدي ملابس المدن بكل ما فيها من خياطة وجاذبية ومعهما غنم وحمار وكلب ، لوحة استرعت انتباهي فأردت أن أصور هذا المشهد ، فوقفت على جانب الطريق فأخرجت « المصورة » ، ورفعتها ، فاذا بالرجل يرفع يده باسطاً الكف بعلامة « ممنوع » فأرخيت المصورة وتقدمت إليه ، فسلم بنفس يظهر منها عدم الرضا ، قلت : ممن الرجل ؟ قال : « وش تبي » ومرت المرأة دون أن تتوقف ، ولكن لم أر فيها صورة ظباء نجد التي قال فيها أمرؤ القيس :

حجازية العينين نجدية الحشا

ولعل النعمة هي التي غيرت هذه المعالم ، فلم تعد البدوية اليوم تتغذى على حليب الابل والتمر بعد أن أصبحت تقف إلى جانب بيتها سيارة تجلب أكياس الأرز والبر من المدن. وبعد مناقشة قصيرة مع ذلك الاعرابي قال : « تكلاك السلامة » وانصرف وتركني واقفاً أتلدد .

واصلت سيري وفي قرب منتصف المسافة بين النقرة وعقلة الصقور ظهر لي ــ بعيداً إلىاليمين ــ جبل أسود مستطيل أبرز ماهنالك من أعلام ، مستوي الظهر يقال أنه لايعلوه إلا أنشط الناس وان في رأسه رس ماء في روضة لا يرده أحد ، هذا الجبل هو « طَمِيَّة » التي تحاك حولها الأساطير من العهد الجاهلي الى اليوم ، وسنتحدث عنها فيما يتبع •

وما أن أقبلت على عقلة الصقور حتى رأيت جبلاً أعفر بارزاً أجمل م هنا من الجبال ذا نعوف بينها أودية ، يشرف على عقلة الصقور من الشمال رأى العين كما أن طمية ترى في الجنوب ، ووادي الرمة بينهما ، وهذا الجبل هو جبل « قَطَن » الذي يشترك مع طمية في الأساطير وعشيقها ! وإلى الشرق قريباً من طمية يرى جبل « عكّاش » منافس قطن على حب طمية !•

وعلى « ٨٠ » كيلاً من النقرة وصلت عقلة الصقور : بلدة هي أكبر ما واجهت حتى الآن من قرى، تقع على الضفة اليمنى لوادي الرمة، وترقب طمية وقطناً وهي بينهما كعجوز عادل حروش ! سكانها قبيله « الشُّعَب » من بني عمرو من حرب ؛ والعقلة هي الشجر الملتف من العضاة ، وكانت هذه العقلة منازل قبيلة الصقور من عنزة ، وعندما حدثت تلك الحروب الطاحنة بينها وبين قبيلة حرب نزحت عنها عنزة فاحتلتها بنو عمرو فعمرتها ، وهي اليوم احدى قرى حرب العديدة المنتشرة على ضفتي وادي الرمة ، وهي أول قرى وادي الرمة مما يلي المدينة ، ذات مزارع وسوق عامرة وبها مدرسة ابتدائية ومتوسطه ، وقربها الى الغرب على قرابة ٢٥ كيلاً قرية البعائث وتتبع اداريا القصيم•

نزلت في مقهى هناك وطلبت شاياً فتقدم منيشيخ عرفني على نفسه انه سويعد الحربي ، وطلب مرافقتي إلى بُرَيْدة ، فرأيتها فرصة أستفيد

منه في رحلتي فوافقت ؛ وما أن سألته عن تلك الجبال حتى أخذ يشرح لي كل ما أريد ، وأخذ يقص الحكايات عن طمية وقطن وعكاش !

عواض السهلي

وقريباً من عقلة الصقور ظهر رجل يدعى عواض السهلي مر بجانبنا ونحن في المقهى فاذا هو رجل حسن الهيئة عليه سيماء الصلاح ذو لحية سوداء تغطي معظم مساحة وجهه ، وقد أصبح طبيباً له شهرة بعيدة المدى ، يعالج كل الأمراض بدون استثناء ! فهو يعالج السكر والسرطان والعقم والسل وغيرها ؛ والعلاج غالباً شرطة بحرف زجاجة مكسورة في مكان المرض ، قال لي رجل تعالج عنده عن العقم : شرطني بالزجاجة في فخذي . وقال شخص يشتكي عينه : شرطني فوق حجاج العين . والناس بين ذام ومادح ، ومصدق ومكذب ، والله أعلم والذي يزعج الناس أن عواضاً ليس له سكن يستقبل المرضى فيه ، وانما يعالجهم في العراء .

طَمِيَّةُ وقَطَنْ وعُكَّاشْ

تقول أسطورة تتجدد بتجدد الأزمان : إن طمية هذه الجبلة السوداء كانت بالحجاز قرب تلك الحرار ، وأن قطناً هذا الجبل الأبيض الجميل كان من نواحي المدينة ، فلما ربعت نجد نزع قطن إليها ، وبينما كان في طريقه برق البرق فرأته طمية فأعجبت به وهوته فنزعت إليه ، فلما رأته رأي العين اعترض طريقها جبل أسمر من جلدتها يقال له عكاش فاستغواها عن قطن وأقنعها أنه هو الاسمر أحق بها لأنهما

يتشابهان في اللون ، وهكذا لم يسعف قطن هذا جماله حيال الواقع المرير ، فمالت طمية إلى عكاش فرمت مراسيها إليه معرضة عن قطن جاعلة وادي الرمة بينهما ٠

وفي ديار الروقة شمال عشيرة ما حفرة كبيرة عميقة بجانبها بقية جبل أسود يقول لها الأهالي « مقلع طمية » وتسمى الوعباء ٠

ويقول بعضهم : ان المزعة من الجبل التي بجانب الوعباء يوجد موضعها في طمية وبنفس المقاس والشكل ! ويدللون على ذلك باشعار يتوارثونها كقول أحدهم :

الهوى من قبلنا شدد طمية

فهل لهذه الاسطورة أساس في أدبنا القديم ؟

ينقل لنا ياقوت عن ابن الكلبي : ان طمية سميت بطمية بنت جام ابن جُمى بن تراوة من بني عمليق ، وكانت طمية أخت سلم بنت جام ابن جمى عنـد ابن عم لها يقال لـه سلم بن الهجين فولدت لـه خميراً وبرشق والقلاح والتريع فهم بالحيرة ، ألا ترى أن العبادي إذا غضب على العبادي قال له : اسكت ياسلم بن طمية ، وانما يعني سلم ابن طمية بنت جام بن جمى وسمي الجبل بمكانه جبل بمكة،قال أبو عبد الله السكوني : إذا خرجت من الحاجر تقصد مكة تنظر إلى طمية ، وهو جبل بنجد شرقي الطريق ، وإلى عكاش ، وهو جبل ، تقول العرب أنه زوج طمية ، سمكهما واحد وهما يتناوحان ، وفيهما قيل :

تزوج عكاش طميـة بعـدما تأيـم عُكاش وكـاد يشيب

ونقل عن الأصمعي أنه علم أحمر ٠ وهو خطأ ، فطمية جبلـة سوداء ٠

وهناك شواهد وشروح عنها وعن قطن وعكاش ، وكانت هـذه الأعلام لعبس ثم آلت الى عنزة ثم إلى حرب بعد القرن الحادي عشر ، وفي قطن مياه ونخيل وسكان ، وبه قرية باسمه ، وكل مياه هذه الأعلام تصب في وادي الرمة ، طمية وعكاش من الجنوب ، وقطن من الشمال .

وادي الرُّمَّة

واد فحل من أكبر أودية العرب كثير الروافد الكبار ، كثير المزارع والقرى ، آهل بالسكان ، يسيل من حرة خيبر « حرة النار » ثم يتجه شرقاً ماراً بين جبلي طمية وقطن المتقدمين حيث تقع على ضفافه قرى عديدة من أهمها : عقلة الصقور ، والبدائع ، وتادق ، والروضة ، والبتراء ، وعطاء .

ثم يمر بين مدينتي بريدة يساره وعنيزة يمينه ، ورواؤهما منه ، ومزارعهما قائمة على ضفتيه ، ثم يصطدم بالنفود ، وهناك قد يخترق هذه النفود اذا فاض فيدفع إلى حفر الباطن ثم الى الخليج العربي قرب الكويت .

وكان هذا الوادي في صدره لغطفان ثم أسفله عند قطن لعبس ، وتقترب منه من الشمال ديار بني أسد ، ثم آل إلى عنزة ، ثم تملكته حرب في القرن الحادي عشر ، وهـم سكانه اليوم إلى قرب بريدة ، وتسكن هُتيم في بعض فروعه في الحرّة ، ومنها قسم صغير في ابانين الجبلين اللذين يمر وادي الرمة بينهما أيضاً ، ويأتي بيانهما .

ومن روافد وادي الرمة المهمة . مبهل ، وكان يسمى الريان ،

والعاقلي ، وكان يسمى عاقلاً[1] ، ووادي الجريد ، وكان يسمى الجريب ، وكلها تأتيه من الجنوب • ومن روافده وادي الحليفة : يأتي من حرة خيبر •

قال ياقوت : بضم أوله ، وتشديد ثانيه وقد يخفف :

واد معروف بعالية نجد ، وفي بطن الرمة منزل لأهل البصرة إذا أرادوا المدينة ، بها يجتمع أهل الكوفة والبصرة ومنه إلى العُسَيلة ، إلى أن يقول : وقال الاصمعي : سمعت أبا المكارم الأعرابي وابن الأعرابي يقولان الرمة طوية عريضة تكون مسيرة يوم[2] تنزل أعاليها بنو كلاب ثم تنحدر فتنزل عبس وغيرهم من غطفان ثم تنحدر فتنزل بنو أسد ، وفي كتاب نصر : الرمة، بتخفيف الميم ، واد يمر بين أبانين يجيء من الغرب، أعلاه لأهل المدينة وبني سُلَيم ووسطه لبني كلاب[3] وعطفان واسفله لبني أسد وعبس ثم ينقطع في رمل العيون ولا يكثر سيله حتى يمده الجريب واد لكلاب •

وتقول العرب على لسان الرمة :

كــل بني فانــه يحسيني الا الجريب فإنــه يروينــي

وبين أسفل الرمة وأعلاها سبع ليال[4] من حرة فدك إلى القصيم •

وتقول العرب ــ أيضاً ــ قالت الرمة :

كل بنيّ يسقينْ حسيّة فيهنّينْ غير الجريب يروينْ

---

(١) انظر بحثين للاستاذ العبودي في مجلة العرب ص ٢٥ و ٢٥٢ س ٧ سنة ١٣٩٢ هـ •

(٢) قوله مسيرة يوم خطأ ، والواقع أنه مسيرة أيام •

(٣) كانت ديار بني كلاب تقع جنوب الرمة على فروعه الجنوبية كوادي الجريب •

(٤) القول للأصمعي • وأراه صواباً •

الخَيْمَة

خرجنا من عقلة الصقور فجزعنا الوادي « وادي الرمة » فظهرنا على أرض جرد تسمى خيمة قطن ، ذلك أن قطناً صار يسارنا يتصل به هذا السهل ، وهذه الخيمة مشهورة بنبات الزبيدي من الفقع « الكمأة» وهي أرض خبت تمتد على الضفة اليسرى للوادي الى قطن .

البدون :

وإلى اليمين ظهر لنا جبلا بَدَن وبُدَينة ، جبلان أسمران غير عظيمي الارتفاع ، يمر بهما وادي الرمة .

الحِصْر

وظهر أمامنا إلى اليسار بعيداً عن الطريق جبل الحصر أسود بارزاً، بسفحه من الجنوب قرية الفوارة ـ بالفاء وتشديد الواو ـ وهي بلدة ابن نحيت أحد شيوخ حرب ، كثيرة الزرع، وتتصل بالحصر من الشرق سلسلة جبال حمر ، وبعيداً أمامنا ظهرت جبال أبانين ، وهما سلسلتان تسمى احداهما أبان الأحمر والثانية الأسود يمر وادي الرمة بينهما ، وتمر هذه الطريق بلصق الأسود من الشمال .

وما أن اجتزنا سهل الخيمة حتى برز أمامنا ـ صدفة ـ شاب في العشرين من عمره تقريباً عرفه الشيخ سويعد فقال : « هذا ولدي همام، وقّفْ وقّفْ! فتوقفنا فجاء همام وسلم على أبيه الذي سأله عن النياق

فقال همام : « مقطاع الوادي » • يعني وراء وادي الرمة على جانبه الجنوبي حيث نحن على جانبه الشمالي •

وهنا قال همام : انزلوا أنا صايد لي أرنب خلونا نشتويه ، أنا خابرك تعجبك الشوية • وهكذا كان فقد جنبنا عن الطريق وشب همام النار وقذف بالأرنب وسطها ، وكان كلما خبأت النار قال سويعد : أوقد يا همام !

وبعد أن أكلنا تلك الأرنب التي قد يزيد وزنها عن ثلاثة أكيال قلت :

جـاء همام بعجـراه معلقهـا   من عـُدْنْ نجد مربعةبرامات[1]

قـال :

أقلطوا واشتووها فهي ضيفتكم   والعَوْد ممن يهيم بالشويات[2]
كـأن شي الأرانب في بلادهـم   شي كباب الرصيفة أو بكتكات[3]
لاشل منك على الخلبوص ضاغطة
وصِدْتَ كل الأرانب في الفلاوات[4]

وواضح أنه شعر هزلي •

---

(١) رامتان : مكان يقع جنوبنا من هذاالمكان ، أكثر الشعراء من ذكره •
(٢) جمع شوية : ما يشوى • وعدن جمع عدنة : انثى الأرنب ، والذكر يسمونه الخزز ، ومن أمثالهم : «مثل الخزز في أقصى الغار» واقلطوا: تفضلوا •
(٣) الرصيفة بلدة أردنية بين عمان والزرقاء ذات منتزهات جميلة ، تقدم لروادها الكباب المشوي ، وكيت كات مطعم على شاطىء بيروت •
(٤) ا الخلبوص عند أهل البادية : الزناد ، وعجز البيت دعاء بكثرة الصيد •

ثادق

تحركنا بعد أن ودعنا همام الكريم،وعلى(٥٧)كيلاً من العقلةوصلنا قرية ثادق ، قرية صغيرة على الضفة اليسرى لوادي الرمة ، سكانها بنو عمرو من حرب ، وخاصة البيضان ، وتقع إلى الشرق منها قرية « عطاء » للذوبة من بني عمرو ، وفي ثادق زراعة ومدرسة ومسجد تراه من الطريق ؛ وكل القرى في غربي القصيم لقبيلة حرب .

الروضة

وعلى «٦٦»كيلاً من العقلة مررنا بقُرَيَّة صغيرة تدعى الروضة، بين ثادق والبتراء ، ليست بعيدة عن أبان الأسود إلى الغرب .

البتراء

وعلى « ٧٣ » كيلاً من العقلة وصلنا قرية البتراء ، قرية صغيرة بطرف أبان الأسود من الشمال الغربي ، ولم يلبث أن فرق إلى اليمين طريق الرس وعنيزة اللتين تقعان جنوب بريدة ، ويقطع هذا الطريق « السَّليّل » شعب يسيل من أبان الأسود شرقاً ، ثم يقطع وادي الرمة حيث أقيم جسر ضخم عليه ، وحيث المدينتان تقعان على الضفة اليمنى للوادي ، وعنيزة ثانية مدن القصيم بعد بريدة ، وأهلها مشهورون بالنباهة في طلب العلم .

وتعتبر الرس ثالثــة مدن القصيم الا أنه ليس لها من المذكــر ما للسابقتين ، ولكنها مشهورة كسوق للبادية ، وتمتد إلى الجنوب والغرب من الرس مرابع نجد الشهيرة ، وعند مرورنا كان معظم أهل تهامة قد وصلوا على السيارات إلى هذه الديار وراء مواقــع القطر ، وطلباً للنجعة •

أبانات

جبلان على ضفتي وادي الرمة،أحدهما على الضفة الجنوبية أشهب اللون يسمى أبانا الأحمر ، والثاني على الضفة الشمالية ويسمى أبانا الأسود ، وهو جبل أسمر اللون ، وكل منهما عبارة عن سلسلة جبلية تنحدر منها شعاب وفيها مياه ، وسكانهما من هـُتيم ، ويمر وادي الرمة بينهما قبل مروره بين بريدة وعنيزة ، وبعد ابتعاده عن عقلة الصقور ، ويضيق بينهما حتى أنه يمكن سده فيما أرى •

ولأبانين شهرة في كتب المتقدمين ، وتغنى بهما فحول الشعراء فقال أمرؤ القيس :

كــأن أبانا ، في أفانين وبلــه ... كبير أناس في بجــاد مُزَمّل (١)

وقال اعرابي حبس باليمامة :

أقول لبوابيّ ، والسجن مغلق ... وقد لا ح برق : ما الذي تريان؟
فقالا : نرى برقاً يلوح وما الذي ... يشوقك من برق يلوح يمانِ ؟

---

(١) وهذا البيت في معلقة امرؤ القيس : كأن ثبيراً ، الخ •

فقلت: افتحا لي الباب أنظر ساعة لعلي أرى البرق الـذي تريان
فقالا : أمرنا بالوثاق ، وما لنـا بمعصية السلطان فيـك يدان
فلا تحسبا سجن اليمامـة دائما، كما لـم يدم عيش لنـا بآبان

وقال لبيد :

درس المنـا بمتالـع ، فأبـان فتقادمت، فالحبس، فالسوبان(١)

وقال بشر بن أبي خازم :

ألا بـان الخليط ولـم يزاروا وقلبك في الظعائـن مستعـار
أسائل صاحبي ولقـد أراني بصيراً بالظعائـن حيث صاروا
تؤم بهـا الحـداة ميـاه نخل وفيهـا عن أبانـين ازورار

ويقول ياقوت : هما تثنية أبان وشروري ، وقيل أبان ومتالع ، فغلبوا التثنية كما قالوا : العمران ، أبي بكر وعمر ، والقمران ، في الشمس والقمر .

صُبَيْح

وعلى ثلاثة عشر كيلاً من البتراء ، و « ٨٦ » من عقلة الصقور وصلنا قرية صبيح : قرية صغيرة ولكنها عريقة على الجانب الأيسر من الطريق ، ذات زراعة ، وأهلها خليط من الناس ؛ قال سويعد : « حرب وحضر وخضيريين » والخضيريون : خلق كثير من سكان القرى والمدن

(١) درس المنا : أراد درست المنازل ، وعلق ياقوت على ذلك بأنه من أقبح الضرورات ، وإنه لكذلك .

النجدية ، لا يتزاوج معهم القبيليون ، وهم قبائل متعددة وربما عدنا للحديث عنهم فيما بعد •

الذيبية

ثم خرجنا من قرية صبيح في الذيبية ـ كالمنسوبة إلى الذئب ـ وهي قرى ومزارع منتشرة لا يكاد يحددها البصر ، سكانها الجملاء من حرب ، وفيها حركة عمرانية نشطة، ومنذ أن تجاوزنا قرية البتراء أخذت الأرض تتسع حيث دخلنا سهل القصيم الزراعي الواسع ، وهذه أجزاؤه الغربية ، فصار الفضاء هنا لا يحد ولا تكاد ترى أعلاماً عدا حبلاً من الرمل يقع جنوبنا بعيداً ، يليه من الغرب الطريق الموصل إلى عنيزة والرس ، ومن الشرق يأخذه طريق آخر يوصل من بريدة إلى المدينتين آنفتي الذكر •

غب زواج :

خلفنا الذيبية فاذا أناس على ماء يسقون أنعامهم، وهذا الماء ممدود في أنبوبة من احدى المزارع قرب الطريق ، كان أكثر الورد قد أخذ يصدر فلمح سويعد امرأة هي آخر الورد فعرفها وطلب مني الخروج اليها قائلاً : « إهزع إهزع على ها الورد تتعلمهم » • ولما وقفنا على الماء سلم سويعد على المرأة بينما اتجهت أنا الى حوض نظيف وجعلت أغسل وجهي ويدي وأنا أسمع ما يدور بينهما •

وكانت المحادثة : السلام والسؤال عن الحال والعيال ، ثم قال سويعد : البارح عندكم عرس ؟

المرأة : إيه ، جزاع معرس على جريّدة !

سويعد : وكيف هو ؟

المرأة:عرس اللي‌يبغضك!جاب زوالي،ويقولون إنه أعطاهم خمسة عشر ألف ريال • وذبحوا يجي عشرين من الغنم ، وما غيرها المسجلات ترطن ! والله ماتسمع اللي في جنبك !

سويعد : عزبة وخمسة عشر ألف ! والبنات بكم ؟

المرأة : البنات ؟ لا عاد تسأل ، بزي ما يطلب أبوها !•

سويعد : جاكم مطر ؟

المرأة:ماجاشي قريّب،يقولون:طاحت أمطار على حايل قبل ثلاثة أيام وهدمت دور ، واللي جانا أمس يقول : وصل المطـر إلى ساق والقوارة •

ومن المحادثة عرفت‌أن رفيقي سويعد له قطعان من الضأن والإبل، وأنها مكتوبة باسم أبنائه بينما يتقاضى هو مخصصات من الشؤون الاجتماعية !

الحَجَازِيَّة

تركنا تلك المرأة الفصيحة صاحبة التعليقات اللاذعة ، ولم أستطع سؤال سويعد عن اسمها غير أنه من المؤكد أنها حربية •

وعلى « ٣٣ » كيلاً من البتراء ، و « ١٠٦ » أكيال من عقلـة الصقور مررنا في‌الحجازية:قرية صغيرة على الطريق غرب رياض الخبراء،

فيها زراعة متقدمة، وسكانها الحنانية من حرب[1] وبيوتها كسائر القرى التي مررنا بها مكونة من طابق واحد من اللبن ، وقليل منها مبني من الطوب الاسمنتي ومسقفة بالخشب ، أما المسلح فنادر في هذه القرى• ولا زالت القرية النجدية غير متقدمة عمرانياً رغم ما يظهر على الناس من الثراء الفاحش ، ولكنهم راضون بما ألفوه من عيشة وسكن ، والذي يزعجهم هو طموح الشباب الذي يريد أن يغير كـل شيء : المسكن والمأكل والمركب •

الدُلَيْمِيَّة

قرية للحنانية من حرب تكاد تتصل بالحجازية ، والمسافة بينهما أربعة أكيال ، ذات مزارع واسعة ، وبيوت متناثرة ؛ ومنها ظهر لنا جبل « ساق » وهو ساق الجواء : شمالاً بارزاً ململوم الرأس أمغر •

ساق الجواء

جبل بارز ململوم الرأس أمغر منتصب في الصحراء تراه شمالاً وأنت تسير بين أبان الأسود وبريدة ، يسايرك إلى مسافات بعيدة • يعرف اليوم بساق مطلقاً ، كانت حوله عيون جارية تسمى عيون الجواء فصارت اليوم تسمى عيون الجزي• وقد غارت تلك العيون، وزراعتها اليوم على الضخ الآلي • وهو واقع في ديار حرب •

وللجواء وساق الجواء ذكر في المعاجم الجغرافية وأشعار العرب•

---

(١) لمعرفة فروع قبيلة حرب وأخبارها : يراجع « نسب حرب » •

القرين

وعلى عشرة أكيال من الدليمة وصلنا القرين : قرية زراعية لولد سَلِيم ؛ وهي حد ديار حرب مما يلي بريدة على هذا الطريق ، وتبعد عنها ــ أي بريدة ــ « ٧٥ » كيلاً إلى الغرب ، وسبب تسميتها القرين وجود أكمة هناك صغيرة بارزة ، والعرب تسمى الجبل الصغير الحائز قرناً فإن كان صغيراً صغروه ، كالقرين بعرفة ، والقرن والقرين بالطائف وغيرها . وتبعد القرين « ١٢٠ » كيلاً من عقلة الصقور .

جنات القصيم

عندما قال شوقي :

آمنت بالله واستثنيت جنته

كان يقصد غوطة دمشق ذات البساتين الخضرة النضرة والفواكه التي تتساقط على الرؤوس ، ولا أدري ما كان يقول شوقي لو رأى اليوم تلك الجنان الخضر التي لايحددها البصر تحيط ببريدة أم القصيم وتمتد في كل اتجاه تقريباً عشرات الأكيال ؟ ولو لم أكن متأكداً أنني أسير على الطريق بين المدينة والرياض ما صدقت أنني في الجزيرةالعربية، وفي نجد خاصة ، هذه الأرض التي لا يعرفها الناس في الخارج إلا بالصحراء القاحلة ، وليس من رأى كمن سمع . فلقد أخذت ودهشت وأنا أسير بين حدائق رياض الخبراء ذات التنسيق الجميل والتخطيط البديع ؛ وقد أصبحت منطقة القصيم اليوم من المناطق هائلة الاتساج



النخيل في القصيم ...

الزراعي تصدره إلى جميع أنحاء الجزيرة العربية ، وخاصة الحبحب ذا الشهرة الواسعة ، وهو ما يعرف في الحجاز باسم « النموس » والنمس من الحبحب : الطويل • وله حلاوة خاصة ، ومن أمثالهم ق « الشحم في الروس والحلا في النموس » •

وتنتج منطقة القصيم إلى جانب ذلك جميع أنواع الخضار والقمح، وتشتهر بجودة تمورها ، وأجود أنواعها في « عنيزة » • ومنطقة القصيم غزيرة المياه ، وفي بعض الأماكن تضرب الانبوبة الارتوازية فيندفع الماء إلى أعلى عدة أمتار ، وعندما أراد أحدهم قفل أنبوبته انتزعها الماء فألقى بها •

رياض الخَبْرَاء

مزارع واسعة تحيط بها سياجات من الأثل والأشجار الأخرى ، والخبراء : مدينة غرب بريدة بقرابة « ٥٥ » كيلاً ، وكل هذه المسافة مزارع متصل بعضها ببعض كانت الحكومة قد قامت باقطاع القادرين على الانتاج أراض زراعية في هذا الاقليم ، وقد أثمرت هذه السياسة ونجحت ربما فوق ما هو مخطط لها ؛ ولا زالت وزارة الزراعة توالي تشجيع المزارعين باعطائهم القروض والارشاد ، وتدفع الحكومة عن المزارع ٥٠٪ من تكاليف المزرعة ، وهو أمر مغر حقاً ، ومشجع •

وبلدة الخبراء متقدمة عمرانياً ، والبناء على قدم وساق ، شجع الناس على الانهماك في البناء تلك القروض الضخمة التي تدفعها الحكومة عن طريق بنك الاعمار ، وتقسط على خمس وعشرين سنة •

البـــدائـــع

ومن الخبراء فرق طريق إلى اليمين إلى البدائع ، وهي قرية زراعية لحرب على « ٢٥ » كيلاً جنوب غربي بريدة ، على ضفة وادي الرمة •

الهلالية

ومن الخبراء خرجنا إلى الهلالية على ثمانية أكيال ، بلاد وأراض صالحة للزراعة •

الشيحيّة

ثم على الشيحية : مزارع على « ١٣ » كيلاً من الخبراء مما يلي بريدة ، زراعتها حسنة وتخطيطها جميل •

المُلَيْداء

ومن الشيحية خرجنا في المليداء•أراض واسعة ذات فلائح حديثة، تأخذ معها الطريق قرابة عشرين كيلاً ، وفيها ــ يمين الطريق ــ خزانات ضخمة لبترومين ، وبها مطار القصيم ، وتجري فيه تحسينات ، وهو يمين الطريق أيضاً ، وسوف تلحق المليداء قريباً بباقي أراضي القصيم ذات الخيرات الوافرة •

والمليداء مشهورة بتلك الوقعة التي أوقع ابن رشيد بأهل القصيم فيها واحتل القصيم بعدها •

عيون الجزي

وبعد « ٤٠ » كيلاً من رياض الخبراء فرق إلى اليسار طريق عيون الجزي : عيون كانت تعرف بعيون الجواء المنسوب لها ساق المتقدم .

وتبعد عيون الجزي من هذا المكان قرابة أربعين كيلاً شمالاً غربياً، فيها مزارع على الضخ الآلي إذ أن العيون السابقة قد انقطعت .

طريق حائل

وقبل عشرة أكيال من بريدة غرباً فرق إلى اليسار طريق حائل ، عاصمة شمال نجد ، وتكاد تكون المدينة الوحيدة في تلك الصحاري الغبر ، وتقع شمال غربي بريدة ، وكان طريقها يفرق من قرب الحناكية ، غير أن ذلك الطريق لم يعبد بعد فصار الناس يأتون إلى هنا لسهولة هذا الطريق الذي عبد حديثاً رغم ما فيه من طول المسافة وقيل لي ان ذلك الطريق القديم ينوى تعبيده .

بُرَيْدَة

أم القصيم وقصبته مدينة جميلة تحيط بها السهول الزراعية التي تفجر فيها الماء ثجاجاً ، وأكبر مدن هذا الاقليم وتأتي بعدها عنيزة ، ثم الرس ، ويتبع بريدة عشرات القرى ، والعديد من الامارات ، تقع شمالي غربي الرياض على « ٤٠٩ » أكيال وشرق المدينة إلى الشمال على « ٥١٥ » كيلاً .

بها مدارس ثانوية ومتوسطة للبنين والبنات[1] ، وأسواق عامرة لوقوعها في دائرة البادية ، وبلدينها نشيطة ، دل على ذلك مدخل المدينة الأنيق ذو الأربعة الممرات ، مرصوف ونظيف ، وكان المطر قد سبقنا إليها فكانت السيول تجري في الشوارع مما أحال المدينة أنهاراً بيضاء وعطل حركة المرور فيها •

وأهل بريدة حسنوا الاسلام شديدوا التدين والمحافظة ، ويذكر أنه عند انشاء رئاسة تعليم البنات عارض البريديون أو بعضهم انشاء مدرسة في بريدة خوفاً أن يجرّ هذا التعليم مباذل هذا العصر وأمراضه الاجتماعية ، ولكن الواقع اليوم هو تعدد تلك المدارس في هذه المدينة فجحافل العلم وارادة التقدم لا يستطيع أحد أن يقف طويلاً أمامها •

وأمير بريدة اليوم هو سمو الأميرفهد بن محمد بن عبد الرحمن آل سعود[2] بل هو أمير القصيم• وكان مقرراً أن أمر على الامارة غير أن وصولي إلى هنا جاء بعد انتهاء الدوام •

تجولت في المدينة رغم تلك البحيرات البيضاء والطين في بعض الشوارع ، ورأيت تقدمها حثيثاً وأتوقع لها مستقبلاً مزهراً •

وعدلت إلى مطعم في أحد الشوارع المعبدة فطلبت من صاحبه المتيسر ، وبعد الفراغ أخبرني أن الحساب « ١٣ » ريالاً مقابل نصف دجاجة وصحن رز • وهالني هذا لأنه يكلف في مكة مبلغ سبعة ريالات فقط ، فقلت له ــ وأنا أمد النقود ــ : لا بد أنك عرفت أنني لست من هذه المدينة !

---

(١) ثم انشئت فيها نواة جامعة سنة ١٣٩٧ هـ •
(٢) استقال سنة ١٣٩٧ هـ •

فتكلم شيخ قريب مني قائلاً : « يا الأخ الناس اليوم كل صار يبغي يغتني بسرعة » !

ولم يتكلم صاحب المطعم الذي كان قد قبض المبلغ ، فكان عنده من الزبائن ما يشغله عن الحديث معي .

وعرفت هنا أن كيل اللحم يباع بأربعة عشر ريالاً ، رغم أن هذه المدينة تتوسط البادية .

الرُّبَيْعِيَّةُ

خرجت من بريدة على طريق الرياض ، وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر تقريباً ، وبدت المزارع قليلة والأرض رملية تميل رمالها إلى الحمرة وقد أكسبها المطر الذي سقط حديثاً لمعاناً زادها جمالاً ، فظهرت مناظرها أخاذة مغرية بالجلوس ، وعلى « ٢٦ » كيلاً من بريدة مررت بالربيعية : بلاد ذات نخل تحيط بها الرمال وتزحف عليها من كل جانب مهددتها بالفناء ، غير أن أهل هذه الديار يقولون : إن زحف هذه الرمال بطيئاً ولذا فانهم ليسوا منزعجين من منظرها تحيط بقراهم ، وهذه الرمال نعوف من امتداد نفود السر التي تمتد شمالاً حتى تتصل بالنفود المتصلة بالدهناء .

الشَّماسِيَّة

وعلى « ٣٢ » كيلاً من بريدة وصلت الشماسية : قرية كبيرة ذات مزارع ونخل ، مستطيلة كأخدود بين النفود ، وعلى جانب الطريق الذي تحيط به الرمال السائبة رأيت أرضاً عزازاً صالحة لوقوف سيارتي قرب

بويتات لبن هناك ، فأوقفت سيارتي وفرشت بساطاً على الرمل الناعم ثم أخرجت الترمس « حافظ السائل الساخن » وبدأت في تحضير كوب من الشاي •

وبعد استراحة قصيرة واصلت سيري باتجاه الزلفي ، أول مدينة بعد بريدة على هذا الطريق •

نفود الثُّويْرات :

شربت ذلك الكوب على عجل وتحركت من الشماسية فسار الطريق بين أراض رملية خالية من المعالم الواضحة ، وعلى « ٨٥ » كيلاً من بريدة صعدت نفود الزلفي المعروفة بالثويرات ، وهي نفود ذات تعاريج، رمالها حمراء جميلة ، كان المطر قد بلها قبل يوم أو يومين فبدت على شمس الأصيل تتلألأ مما أكسبها منظراً بديعاً رائعاً ؛ وتمتد هذه النفود من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي فاصلة بين اقليمي القصيم في غربيها ، والزلفي في شرقيها ، وتتصل في الجنوب بنفود السر التي تفصل بين اقليم اليمامة شرقاً وعالية نجد والسر والقصيم غرباً ، وهي مع الدهناء والربع الخالي تجعل اليمامة كجزيرة يحيط بها الرمل •

المُوَيْـــهْ :

سرت في نفود الزلفي خمسة عشر كيلاً فوصلت نقرة وسط النفود ذات نُخَيل وبويتات لبن ضئيلة تحيط بها الرمال السائبة التي تغطي بعض جذور النخل حتى لتكاد تبتلع كل ما في هذه النقرة الصغيرة فتجعلها نسياً منسياً وأثراً بعد عين ؛ وفجأة برز شيخ بدوي إلى جانب الطريق فأشر لي فتوقفت فأركبته ، ومنه عرفت إن في هذه النفود أزيد من

خمسين نقرة مثل المويه متناثرة وانها أصبحت مهجورة معظمها ، وأن نخلها يعيش عثرياً ويطلع فلا يؤبر ولا يجد . قلت : وليس في هـذه الأرض قرود تستفيد من هذه المأساة كما هي العادة في الحجاز ، حيث تتحول النخيل الهاملة إلى مصايف لها . وكان اسم الشيخ ذيبان بن نفاع المطيري ، توقفت سيارتهم على الطريق ، وهو ذاهب إلى الزلفي لاحضار بيطار لاصلاحها .

نفاد الوقود :

ما أن تحركت من موقفي للشيخ حتى انبعث من داخل الطبلون نور أصفر صغير مشيراً بأن الوقود قد نفد ، وكنت نسيت ذلك أثناء الطريق رغم أن جميع عدادات السيارة تعمل بانتظام ، فلجأت الى تخفيف السرعة حتى صارت رجلي لا تكاد تلمس المدوس ، فانخفضت السرعة إلى « ٣٠» كيلاً في الساعة .

وشعر مرافقي بذلك فسألني عن السبب ، قلت : غلق البنزين . قال : « يا كتبة خير » .

وتذكرت ذلك الدرس الذي ألقاه علينا مدرس في فن الصيانة حين قال : اذا أردت أن توفر الوقود فزد السرعة !

فرفعت يدي ، ولما أذن لي بالكلام قلت : أعتقـد يا أستاذ أن الحقيقة غير ذلك ، بل عكسه . قال : « أنت دائم أفكارك غير أفكار الناس ! اجلس !

وقال زميل بجانبي : أنت غلطان ، والحق مع المدرس ! .
تذكرت هذا ، وقلت : ليت الذي بدأ وقوده ينضب الآن هـو

مدرسي ذاك ، فلا شك أنه سيأتي على آخره خلال كيل أو كيلين •

وسلم الله ، فمازلت أخفف السرعة وأرقب ذلك النور الخافت النذير بانقطاع في هذه النفود حتى ظهرت لنا بلدة الزلفي على « ١١٠ » أكيال من بريدة •

وأول ما صادفنا من الزلفي محطة وقود على السفح الشرقي لنفود الثويرات ، وقد أخذت الرمال تزحف عليها حتى غطت بعض جدرها الغربية ، وسألت شيخ هناك ، ألا تخاف على هذه المحطة من هذا الرمل الزاحف ؟ قال : لا ، هذا ترده الصبا ليا هبت !• وأرى أن في قول الشيخ شيئاً من الصواب ، فالرياح تتقاذف الرمل فتدفعه الغربية إلى الشرق وتأتي الصبا فتعيده ، وعندما هبت الصبا آخر تلك الليلة وأنا في الزلفي كان أول خاطر بذهني قول هذا الشيخ ، وأنا أطلب المولى أن تظل هذه الصبا تدافع الرمل عن مدينة الزلفي الجميلة •

وهذه سنة البديع الخلاق ، تتضاد الرياح فيكون في ذلك خيرنا ، وتجدب الأرض لتزداد خصباً فيكون لصالحنا ، وتغاث هذه الأرض بعد ذلك فتكون نعمة منه مزجاة الينا ؛ سبحانه خلق جميع المتضادات كالليل والنهار والحر والقر وأخلف بين طبائع الأرض ومن عليها ، كل ذلك لعمار هذا الكون ولصالح هذا الانسان الذي فضله على ماسواه •

الزلفي

ينطقها أهلها بكسر الزاي ، وأرى الصواب ضمها « الزُّلْفِيُّ » لأن اشتقاقها من الزلفى ، وهي القربى ، والتزلف : التقرب •

بلدة على « ١١٠ » أكيال من بريدة شرقاً إلى الجنوب ، تجمع بين

القديم والحديث ، فبيوت الأحياء الشعبية لا زالت على طراز نجد القديم مبنية من اللبن الأحمر متلاصقة ذات ممرات ضيقة ، وإلى جانب ذلك ظهرت شوارع فسيحة معبدة ومساكن بالاسمنت المسلح على جانبي الطريق ، وجميع مباني الدولة هنا من ذات التصميم الحسن والرونق الجميل ، وكانت شوارعها موحلة لهطول المطر في تلك الأيام •

وفي الزلفي مدرسة ثانوية وأخرى متوسطة ، ومدرسة للبنات أو مدرستان ، وأعمال بلديتها تدل على سعي متواصل ، غير أن لجهد الانسان حدوداً ، ونحن قوم طُمُح نريد أن نسابق الريح في التقدم ، لذا تسمع عدم الرضا عن سير المشاريع ، والأيدي العاملة في المملكة هي اليوم من الأزمات المستحكمة ، وجل الذين نستوردهم للعمل الانشائي لا يلبثوا أن يندمجوا في المجتمع فيتعاطوا التجارة ؛ فطول رحلتي هذه ورحلاتي الأخرى لم أجد سعودياً في مطعم أو مقهى إلا نادراً •

ومدينة الزلفي تقع في اخدود مستطيل من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ، وهو نهي زراعي مخضر تحيط به من الغرب على طول امتداده نفود الثويرات ، وكان يخيل إلي أنها تزحف إليه ، غير أن أهل الزلفي لا يخشون ذلك ويؤكدون عدم انتقال هذه النفود • والقول ما قالت حذامي — وأهل مكة أدرى بشعابها •وقدمنا عن هذا مايكفي• ويحف به — سهل الزلفي — من الشرق جرف حاد مرتفع لحزم عال يمتد بامتداد السهل والنفود تتبارى كلها في اتجاه الجنوب الغربي •

والمدينة هي قاعدة امارة الزلفي ، ويسمى الاقليم باسمها •وأهلها ذوو أخلاق مرضية يميلون إلى المرح والابتسامة • وتخطيط المدينة جميل وحركة العمران العامة نشطة ، وهي من آثار بنك الاعمار المتقدم الحديث عنه •

ليلة في الزلفي

تجولت في مدينة الزلفي رغم كثرة الوحل والمياه الراكدة غب ذلك الغيث المبارك ، ثم خرجت الى مقهى بظاهر البلد على الطريق ، وكانت الساعة تقترب من السابعة ، أي انني قد قضيت اثنتي عشرة ساعة في السير المتواصل ، وكنت قصدت الاستراحة في الشماسية حتى نغصها عليّ الشيخ الطيب ، وقد أمسيت الآن منهكا تماماً فجلست في ذلك المقهى الذي يقدم الطعام ــ كبسة الدجاج ــ إلى جانب القهوة والشاي،وأديت صلاةالمغرب معجماعةمن المسافرين أمّهمأمي لايحسن حتى قراءة الفاتحة ، ثم اطرحت على سرير خشبي وضعت فراشي عليه ، وبعد العشاء والشاي قال المقهوي : الحساب « ١٧ » ريالاً بينما هو في حقيقة الأمر يساوي فقط ثمانية ريالات ، ولكن جميع العاملين هنا من اليمنيين الأجراء ، وكل تصرفاتهم ارتجالية وحسب منظر الزبون ! وقد رأيته حاسب آخر بجانبي على أحد عشر ريالاً وعلى نفس الكمية.

كان البرد قارساً غير أنني كنت مرغماً على قضاء هذه الليلة في العراء ، فالغرف الموجودة كلها وسخة ومكتظة باليمنيين العاملين في البلد ، ولذا فضلت البرد على تلك الحالة . وكانت ليلة ليلاء من ليالي كانون المشهور ببرده ، وفي فضاء من أفضية نجد الواسعة التي تسمع لرياحها صريف وصرير .

مُلَيح

قضيت في ذلك المقهى ليلة ليلاء هبت فيها الصبا التي كانت تزف السحاب الجون إلى حيث أرسله البارىء المنشيء مما زاد في برودتها ،

وكنت ــ لتعبي ــ قد نمت وتركت مذياع السيارة مفتوحاً، وفي منتصف الليل أيقظني عامل المقهى لاغلاقه ، ثم عدت الى نوم عميق لم أفق منه إلا على صوت المكبر في الزلفي وهو يردد الآذان، وفي الخامسة والنصف كنت قد تحركت على طريق الرياض ، وعلى « ٢٠ » كيلاً من الزلفي مررت بمليح : نخل وبيوتات طينية يسار الطريق .

الغاط

الغاط : بالتخفيف : بلدة صغيرة على « ٣٧ » كيلاً من الزلفي ، بيوتها من اللبن ذات طبقة أو طبقتين ، في واد ضيق كثير النخل ، ولضيق الوادي لم يجد الطريق مناصاً من هدم الكثير من بيوت الغاط حيث بدت الجدر المنهارة على قارعة الطريق ، وكان واديها يمشي سرباً في ذلك اليوم ، وفي الغاط مدرسة ومسجدان ، وأمارة أحسبها تابعة للزلفي ، ولضيق واديها تفكر الحكومة في نقلها إلى ظهر ذلك الحزم الذي ينحدر منه واديها ، وتخطيطها تخطيطاً حديثاً ، وواديها يتجه إلى سهل الزلفي مغرباً . ولأهل الغاط ــ على صغر بلدهم ــ ذكر غير خامل في نجد ، ومنهم أمراء نواحي وكتاب وموظفون مرموقون ، و « الناس مخابر وليسوا بمناظر !» .

المَجْمَعَة

مدينة صغيرة على « ٨٠ » كيلا من الزلفي ، و « ١٩٠ » كيلاً من بريدة ، و « ٢١٩ » كيلاً من الرياض . وهي أكثر تقدماً من الزلفي وأحسن تخطيطاً ، فشوارعها منظمة ، ومنارة بالكهرباء ، وتقع في سهل واسع أفيح تتخلله بعض الأكام الصغيرة ، وزراعتها حسنة ، والمشاريع

تجري فيها في سرعة حسنة ، وتجمع المجمعة الصغيرة ـ كسائر مدن نجد ـ بين القديم والحديث غير أن التصميم واضح على إبادة ذلك القديم ، يظهر ذلك من نسف البيوت والقلاع الطينية الذي يجري بلا هوادة ، فالثروة اندلعت وأصبحت الأوراق النقدية كأوراق المطبوعات ، وبنك الاعمار يعطي سلفاً تزيد عن الحاجة ، فأصبح كل يريد أن يسكن فلة جميلة يحيط بها سور وتغطي نوافذها الأشجار •

وصلت إلى المجمعة مبكراً وكانت الشوارع شبه خالية الا من العمال وبعض المزارعين المتجهين في حثث إلى أعمالهم ، والدكاكين مقفلة، وكنت رغبت أن أرى السوق القديم فذهبت أجوب الشوارع بسيارتي فاهتديت إلى مجموعة كبيرة من الحوانيت الطينية عرفت آنها السوق القديم ولكنه كان خاوياً فلمحت عن بعد مطعماً صغيراً ـ وما أقل المطاعم والمقاهي في هذه المدن النجدية الصغيرة ـ فذهبت إليه فتناولت فيه فطوراً من الفول والسمن الجيد اللذيذ ، وقمت بعد ذلك بتحضير كوب من الشاي اللبتن •

عدت الى السوق في الثامنة حيث فتح أول حانوت كان يبيع كل ما يلزم البادية ، فسلمت على صاحبه فدعاني إلى الجلوس في رحبة داخل الدكان مفروشة ، كان شيخاً أشيب حسن البشر سريع النكتة يجري في عروقه دم الشباب ! سأله شخص بكم هذا ؟ قال : بابدال الميم فاء ! ثم نهض وتركني في الدكان ولم يلبث غير دقائق فعاد بدلة يفوح منها ريح الهيل ، ثم عاد ثانية فأحضر براداً من النوع الفاخر مملوءاً شاياً ، كان هذا عنوان كرم أهل المجمعة ، وكنت قد حلفت له أنني قد أفطرت وبعد ذلك ذكرت له قصة الشماسي ، فقال : وكل سقاء بالذي فيه ينضح •

فعرفت أنني أمام رجل له حظ من الثقافة ، فسألته عن اسمه فقال : أنا صاحب الدكان ! وحضر الشاي جار له فقال : أما رأيت فلاناً قد حضر أمس ، ويقال انه عيّن في منصب كذا . قال صاحبنا : لكل زمان رجال .

وفي التاسعة بدأت تفد إلى السوق سيارات البادية ذات الأحواض الصغيرة « ونيتات داتسن » ومدن نجد التي مررت فيها لا تظهر فيها المرأة المتحضرة ، أما البدويات فيجبن الأسواق ويشترين مباشرة ، وممن جاء إلى صاحبنا هذا امرأتان عنقاوان مبرقعتان كأن عيونهن عيون المها فساومناه في حاجيات عرفت منها أن سعر كيل الهيل ثمانون ريالاً وكيل القهوة بسبعة ريالات ، وكان الحوار : آخر الكلام ؟ ما زوّد عليكم . هاودنا . هذي المهاودة . حنّا عملاك . دمتوا وسلمتوا ! ولشدة المكاسرة نزل الهيل إلى « ٧٥ » والبن إلى « ٦½ » . وعرفت منه انهما من البرازات من مطير ، وهي غير برازات السهول ، وديار مطير نجد تقع شمال المجمعة إلى حدود الكويت ، وكانت ديار مطير سفوح حرة الحجاز الشرقية بين جبال أبلى شمالاً ، ووادي المحانى جنوبا منساحة في عالية نجد الى ضرية ونفء وعنيزة ، ثم حدثت بينهم وبين عتيبة حروب أجلت معظم مطير الى هذه الديار ، وبقيت بنو عبد الله في ديارها بالحجاز(١) . وفي جلاء مطير يقول ابن ربيعان لرجل من عتيبة لم يشترك في تلك الحروب :

منها طردنا الدويش اصرار الابهالي — يوم أنت يم الرها تبني حناياها(٢)

وجاء رجل يتواعد من صاحبنا على السفر غداً فقال له : « اترك الساعة ، واذا وذن ديك أمك تعال !

(١) عن فروع بني عبد الله : انظر كتابي « معجم قبائل الحجاز » .
(٢) حناياها : جمع حنية : زربة الغنم .

أعدت عليه السؤال ــ وأنا أتأهب لمغادرته ــ عن اسمه ، فقال : « اسمي ثلاثة أحرف ، اذا حذفت آخرها فهو قبيح ، واذا حذفت أوسطها بمعنى أكل ، واذا قلبته فهو لفظة انجليزية لأحد أعضاء الانسان .. وكان مستعد أن يزيد ويزيد غير أنني شكرته وغادرته لأني كنت في حاجة إلى الجد كحاجته إلى الهزل .

والواقع أن أهل المجمعة دمثوا الأخلاق رقيقوا الشمائل، بعيدون عن الصلف والتزمت ، وقد عرفت منهم بعض الشبان في الرياض كانوا محبين للبحث والأدب .

قبيلة مطير

قبيلة اختلف متأخروا النساب في أصلها ، فقال بعضهم : هي بقايا غطفان . وأراد آخرون تجنب الزلل فقالوا : هي من عدنان وقحطان ! وهو أمر لم تسلم منه قبيلة اليوم .

قلت : الظاهر أن القولين صواب ، غير أن هناك ما هو أوضح ، وهو ما أورده صاحب معجم قبائل العرب عن تاج العروس أن مطيراً بطن من حكم ابن سعد العشيرة من مذحج ، وهم : مطير بن علي بن عثمان بن أبي بكر الحكمي . ثم يقول : الحكم بن سعد العشيرة : بطن من مذحج ، من كهلان ، من القحطانية . قال الزبيدي : ولبني حكم بقية كثيرة باليمن ، منهم بنو مطير ، كانوا يقطنون بتهامة في نواحي أبي عريش ، مجاورين لحاشد ، وخولان ، وكانت تبلغ مساحة مقاطعتهم مسافة خمسة أيام . ثم عدد أوديتهم فاذا هي من حرض جنوب جازان إلى صبيا شماله[1] . ولا زالت لبني حكم بقية جنوب

(١) معجم قبائل العرب : ٢٨٦ ، ١١١٢ ، ١١١٣ .

شرقي جازان ، ولهم بلدة المضايا على الطريق إلى سامطة .

قلت : إذاً قبيلة مطير كانت تسكن تلك الديار مجاورة لقبيلة حرب ، ثم حدث ما أوجب نزوحها كما حدث لحرب فنزلت ضواحي المدينة الشرقية مجاورة لحرب أيضاً ثم اندمجت فيها بقايا غطفان التي كانت تسكن هذه الديار والتي كانت قد شاخت ككنانة وسليم فأصبحت هشة قابلة للتفتت أما القبيلة الغازية فليس لها من أسباب البقاء في هذه الديار سوى قوتها ، ولما أن حرباً استوطنت بين مكة والمدينة ظهرت على سطح الحوادث وتحدث عنها الحجاج في رحلاتهم بينما ظلت مطير منزوية في تلك البقاع المجهولة على السفوح الشرقية لحرة الحجاز مشغولة بمكافحة أربع قبائل شرسة هي : حرب في الغرب ، وعنزة في الشمال ، وعتيبة في الجنوب وبنو لام في الشرق وخاصة بني الظفير ؛ واستطاعت مطير أن تدفع بقايا بني لام فتتوغل في نجد شرقاً ، غير أن الحركة الطاحنة بين القبائل التي حدثت في القرن الحادى عشر جعلت مطيراً بين فكي كماشة ، حرب من الغرب والشمال ــ بعد جلاء عنزة ــ وعتيبة في الجنوب ، وقد تقدمت الاشارة الى ذلك .

وتنيجة إلى هذا الضغط انقسمت القبيلة إلى قسمين : قسم ظل في دياره الاصلية ــ كما أشرنا آنفاً ــ والقسم الأكبر انساح في أسافل نجد في شمال اليمامة إلى حدود الكويت ، وبعد توحيد المملكة والضرب على أيدي مثيري الحروب من القبائل تمكنت كل قبيلة في أرضها الجديدة ولم يعدلها الحق في المطالبة بتلك الديار ، فاستقرت هذه القبائل وبنت المدن الصغيرة والقرى مما زاد في عمران الأرض ورفاه المجموع .

وتنقسم مطير إلى فرعين كبيرين ، هما :

١ ــ عِلْوة ، ومن فروعها :

آ ــ الموهة ، ومنها : الدمشان ، والرخمان ، والخواطرة ،[1]

ب ــ الجبلان ، ومنهم : العُقيمات ، والمقالدة ، والأعنة •

جـ ــ ذوو عون، ومنهم: الصهبة، والملاعبة ، والمطيرات ،والحلف

٢ ــ برية : وتقول رواة سبيع : ان برية هذه كانت زوج عمير بن سبيع فأنجب منها وتوفي عنها فتزوجت في مطير فأنجبت ، فبنو بريه خليط من سبيع ومطير •

وتنقسم بريه إلى :

آ ــ وسامة الهلال ، ومنهم : الصعران ، والصعبة •

ب ــ واصل ، ومنهم : المريخات ، والبرزان ، والعبيات ، والدياحين ، والهوامل •

ج ــ بنو عبد الله بن غطفان : ومنهم : الصعوب ، وذوو عون[2]، وميمون والشلالحة ، والعزايزة •

وليست هذه هي فقط بطون مطير ، ولكن الرحلة مختصرة وهذه لمحة سريعة ، ومن المراجع التي توسعت واختلفت في فروع مطير : معجم قبائل العرب ، وكنز الأنساب ، وقلب جزيرة العرب • وحبذا لو تفرغ رجل من هذه القبيلة فقدم اليقين الأصح عن أنسابها وفروعها وتأريخها ، فان الرائد لا يكذب أهله ، وأهل البيت أعرف بدخائله •

(١) في الكتب التي بين أيدينا اليوم اختلاف كبير في بطون مطير •
(٢) هذا أصح من القول أنهم من علوة ، والخلاف بين المراجع شائك •

جُلاجِل

خرجت على طريق الرياض ، وعلى نحو من ثلاثين كيلاً مررت في بلدة جلاجل : بلدة صغيرة في واد زراعي عميق ، فيها غابات من النخل، وبيوتها كبيوت الغاط ، فيها مدرسة ومسجد . وعلى جلاجل والتؤيم المتجاورتين قول الحطيئة :

عفا تؤم من أهله فجُلاجِلُهْ   فردت على الحي الجميع جمائلهْ(١)

وقول ذي الرمـــة :

أيا ظبية الوعساءِ ، بين جُلاجل   وبين النقا، أأنتِ أمْ أمُّ سالم؟(٢)

وقال ياقوت : جلاجل جبل من جبال الدهناء ؛ وعدم دقة تحديدها من سمات التأليف في تلك الحقب .

التُّؤَيم

وبعد جلاجل بثمانية آكيال مررت في بلدة التويم : بلدة جـل بيوتها من اللبن ، ذات نخل كثير ، تقع في نفس وادي جلاجل ، وكان السيل يمشي والغدر كثيرة ، ولها ضاحية يسرة الطريق جميلة قائـم العمل فيها عـلى بناء فلل وبيوت مسلحة ، بينما أنشيء جسر يـربط البلدة القديمة بالطريق العام يمر فوق الوادي العميق المتجه إلى مطلع الشمس حيث تنتظره رمال الدهناء .

---

(١) ديوان الحطيئة ص ٢٣٩ .
(٢) معجم البلدان « جلاجل » .

روضة سُدَير

بلدة صغيرة على « ٤٨ » كيلاً من المجمعة و « ١٧١ » كيلاً من الرياض ذات مزارع ونخل في واد كبير العمل جار في سد لهذا الوادي، ومتى تم سيكون له أثر زراعي طيب على الروضة والحصون وربما الحوطة القريبة منها ، وتربتها خصبة وزراعتها جيدة ، وتدل بيوتها على عراقتها ، وكذلك نخلها •

الحُصُون

وبعد روضة سدير بثلاثة أكيال وصلت الحصون ، مزارع ذات نخل ، تتبع الروضة ، وواديهما واحد •

الحَوْطَةُ

وبعدها على « ٥٨ » كيلاً من المجمعة كانت الحوطة ، وهي غير حوطة بني تميم المشهورة ، فتلك جنوب العارض وهذه شماله •

والحوطة أو حوطة سدير متقدمة عمرانياً ، ذات مبان مسلحة ، حسنة التخطيط • وزراعتها حسنة ، وفيها جميع المرافق من بلدية وتعليم وغير ذلك •

وخرج الطريق من الحوطة في صحراء واسعة ذات حزوم قليلة السكن ، وعلى « ١٠٥ » من المجمعة فرق يميناً طريق الصفرات ، وعند المفرق زراعة وبويتات أحدثت بعد شق الطريق ، ثم سار الطريق مسافة تزيد على مائة كيل في فلاة لا سكن فيها ولا ماء •

٢

مِنَ الرِّيَاض

على « ٢٠٨ » أكيال من المجمعة واجهتني أول معالم الرياض ، عندما لمحت إلى اليمين مدينة الدرعية الخضراء ذات التأريخ المشهور والمجد المنسي ، وتقع الدرعية على أحد عشر كيلاً شمال الرياض ، على ضفاف وادي حنيفة ، كثيرة النخيل والبيوت اللبن والقلاع الأثرية ، ورغم أن الرياض كان يوماً من فلائح الدرعية الا أنها تكاد تصبح حياً من أحيائه ، وعلى القاعدة القائلة « أكرموا عزيز قوم ذل » جعلوا في الدرعية بلدية وهيئة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي هيئة تذكر في نجد فتشكر حيث لا زالت تذكر الناس بالصلاة وترشدهم ، بخلاف ما في الحجاز • كانت الشمس تتأهب لمغادرة هذه الأرض كمصدر الورّاد ، بعد يوم شميس ممتع ، ولم أكن احتاج الى دليل في الرياض غير أنه « عقبني على الديمة سيل »[1] وعادتي أن أنزل في البطحاء ، ودلفت من شارع فسيح إلى شارع ذي أشجار وأزهار وحدائق ، فاذا بي في شارع طارق بن زياد ، أي قد تجاوزت البطحاء فعدت ثانية فاذا بي في أم سليم ! وحدرت وسندت حتى قاربت الساعة الثامنة فيئست من الحصول على البطحاء ، فأوقفت سائق ونيت فسألته ، فقال اتبعني ، وماهي الا لحظات حتى عرفت الشارع الذي أنا فيه فاذا هو المنشود •

وفي فندق الحرمين في البطحاء استأجرت غرفة ، وبعد نقل العفش واستلام المفتاح ذهبت إلى مطعم اليمامة وعدت فارتميت على السرير ،

---

(١) المثل يقول : عقبك على السيل ديمة • اي ضعيت معالمه ، غير أن قلبه هنا هو المناسب •

وعندما مددت يدي لفتح درج الطاولة التي أمامي « كمدينة » خرج الغطاء في يدي !

ونمت ، ولم يرعني الا وكل ما تحتي يسقط إلى الأرض ، ولشدة التعب وحلاوة النوم وددت أن أبقى كما أنا غير أنني كالمستحي من نفسه نهضت إلى السرير الآخر .

أول يوم في سلاح الحدود

أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

بكرت صباح يوم ٢٦ محرم ١٣٩٦ هـ فسرت في طريق المطار ، ومن باب وزارة الداخلية دلفت إلى مبنى المديرية العامة لسلاح الحدود، وكان سعادة المدير العام الفريق عبد الله بن عبد الرحمن آل الشيخ ــ كعادته في الدوام المبكر ــ قد جلس في مكتبه ، ولما سلمت عليه بدا لي أنه لا يعرفني ! فسألته عما اذا كان يذكرني أم لا ، فقال : أعتقد أننا قد اشتغلنا سوى !

كانت دراستنا سنة ٨٤ ــ ١٣٨٥هـ أي قبل أكثر من عشر سنوات، وكنت برتبة نقيب وكان برتبة مقدم ، والآن أنا برتبة مقدم وهو برتبة فريق ، فالبون شاسع ولا بد من كلفة الرئاسة ، والفريق عبد الله من الرجال شديدي الاخلاص ومن أسرة آل الشيخ العريقة ذات المجد المؤثل ؛ وبعد واجب التحيات عرفت من سعادته أنه لم يتم تعييني بعده.

البحث عن الاصدقاء

لي في الرياض أخوة أصدقاء ، وكان عليّ الاتصال بهم بأسرع

فرصة ، فتوجهت من سلاح الحدود إلى وزارة العمل حيث زرت الأخ عبد الله بن محمد بن رداس العلوي[1] الحربي، وما أن رآني حتى رحب وسهل وهش وبش ، والصديق أبو محمد من الرجال الذين لا تمل حديثهم ولا تثقل عليك مجالستهم ، وهو شاعر وكاتب ومحدث لبق قوي الحجة ، من مؤلفاته « شاعرات من البادية » مطبوع في جزئين • وهو من المتحمسين للعرق العربي ، وحديثه عن الأدب العربي لا ينقطع ويحفظ الجزل منه كمطلع لامية العرب للشنفرى،وطاوي ثلاث للحطيئة•

ويرد في حجته لعدم التكافؤ :

وأول احساني إليكم تخيري   لطيبة الأعراق باد حصانها

عبد الرحيم بن مطلق الاحمدي

ومن عند ابن رداس اتصلنا هاتفياً بالصديق عبد الرحيم الأحمدي في الدرعية[2] فلم يكن موجوداً فتركنا له رسالة هاتفية فيها اسم الفندق ورقم الغرفة ، والصديق الأحمدي مدير مركز التنمية بالدرعية شاب أديب لطيف محبوب يسرع إليك اذا هتفت له ولا يثنيه عنك ثان ، ووجدت نفسي مسروراً أن يكون لي هذا النوع من الأصدقاء ؛ وللأخ الأحمدي ولع بالتراث الشعبي ، وهو يعد كتاباً في هذا الموضوع من الأدب الشعبي ، وله قصائد شعبية وفصحى[3] وله مقالات في الصحف •

في ضيافة أبي محمد وجولة في البحر الأحمر ومشاهدة مظاهر الثراء الهائل:

دعاني أخي أبو محمد الى تناول طعام العشاء في داره ، ولما أنني أعرف كرمه فقد أقسمت عليه ألا يذبح، كعادتنا في اكرام الضيف، ذلك أنني

---

(١) و (٢) ترجمت لهما في « نسب حرب » •
(٣) نشرت بعضها في « الأدب الشعبي في الحجاز » •

لا أرى لمثل هذه المظاهر لازما . وجاء الى الفندق ليصحبني الى البيت. وسألته عن الشيخ حمد الجاسر[١] الذي خرج من بيروت خلال حوادث عام ١٣٩٥ هـ وبالتحديد قبل شهر الحج ثم انقطعت أخباره عني وتوقفت مجلة « العرب » عن الصدور ، فلم أجد عنده خبراً غير أنه اقترح أن نذهب للبحث عن سليمان الجاسر صهر حمد على ابنته «مي» فكان أن قمنا بجولة في (البحر الأحمر[٢]) فلم نهتد إليه فأردنا أن نستعين بصاحب مكتب عقاري يعرفه ابن رداس .

أرخاء ذا أم عمت البلواء ؟!

دخلنا ذلك المكتب الذي يديره نقيضان : شاب جامعي ورجل أمي، وكان الأمي أنجح وأحذق في جمع المال! وبعد الترحيب والحديث المسهب عن المساهمات والترغيب فيها ، لاحظت على مائدة غير بعيدرزماً من الأوراق ماشككت أنها مطبوعات وخرج كلأصحاب المكتب وعادوا في حركة دائبة ، فاذا بأحدهم يحضر زنبيلاً فيتناول تلك الرزم ويكفتها رزمة بعد أخرى وكيفما اتفق في زنبيل أسود ، فاذا هي نقود من ذوات المائة ريال ، ثم فتح باباً فقذف بها بلا عناية ولا أدنى اهتمام ! لقدهانت الثروة بعد أن انهالت على الناس هنا ، فهؤلاء كان أحدهم يفتش جيبه عشر مرات في النهار ! وكان اذا ملك مائة ريال يدسها حتى عن أقرب الناس إليه ، ولكنها بلية التضخم المالي ، ففي زيارة لصديق في بيته كانت ربطات هائلة منذوات المائة علىمنضدة في المجلس لايهتم أحدبها.

والحديث هنا عن الأرض والمساهمات : فلان باع أرضاً بخمسة ملايين ! وذاك لحقه ثمن أتعاب من المساهمة الفلانية نصف مليون ! كدت ــ ورب الكعبة ــ أفقد صوابي وأزهد في رزقي ! فأنا لم أقبض يوماً مبلغ خمسين ألف ريال دفعة واحدة فإذا أنا أمام قوم ليس لهم

---

(١) ترجمت له في « نسب حرب » .

(٢) أحد أحياء الرياض .

حديث غير الملايين، ومهما فتحت باباً للحديث في الشؤون العامة أو الدّين أو الأدب لا تكاد تتمه حتى تسمع من يقول : الأرض التي في مكان كذا بكم انباعت ؟ بمليونين ! بس ؟ يا خسارة ليتني دريت ! ثم تنظر إلى هذا المتكلم فإذا هو موظف بسيط أو منكلخ بالأمس من البادية أو القرية ، فتكاد تصرخ في وجهه : (من أين لك هذا) ؟

قال موظف كبير : كان عندي فراش منح قطعة أرض باعها بنصف مليون .. قلت : بنصف مليون ؟ ! قال : إنك عجول ! لم أتم كلامي ، اشترى بنصف المليون أرضاً كبيرة باع منها بمليوني ريال ! فاشترى سيارة بضعف ثمن سيارتي ، وبنى فلة لن أبنيها ولو صرت وزيراً ثم أثثها بمبلغ « ٦٠ » ألفاً ! ثم استقال !

في هذا الخضم الغريب أو التنافس المسعور على الثروة المتدفقة نسينا شيخنا والسؤال عنه ! وبعد لأي حدثت أبا محمد الذي كان يعرض أرضاً له للبيع ويمدح موقعها ، ونبهته لما جئنا من أجله ، فسأل أحدهم ، فقال المسؤول : العلامة حمد الجاسر ؟ قلنا : نعم . قال : لا أعلم عنه ولا أعرف بيت صهره .

ناهض الناهض(١)

خرجنا من ذلك المكتب المكتظ بالثروة وطلابها والذين كادوا يدخلوني في عداد المساهمين حيث قال أحدهم : لو دفعت يا أستاذ خمسين ألف بس ، يمكن أن تعود عليك بربع مليون ! قلت في نفسي : ومن أين يا حسرة الخمسين ! لو كنت من أهل مثل هذه الدخول لكان أول عمل أقوم به التفرغ للأدب وطبع مؤلفاتي التي تئن في أدراج مكتبي .

وبعد قليل كنا أمام دار الشيخ ناهض الناهض أحد موظفي

---

(١) ترجمت له في « نسب حرب » .

الحكومة السابقين شيخ كثير الترحيب حسن المحادثة حول الحديث إلى الأدب فشعرت بارتفاع المعنوية ، واعتذر مني أنه على سفر الى مزرعته في قريتهم باقليم السر بين القصيم والوشم .

وحدثنا الناهض عن ديوان الحطيئة واعجابه بشعره ، ورجاني أن أحقق الأماكن الواردة فيه ، فوعدته اذا أمد الله في عمري وتفرغت أو تقاعدت !

وهنا سَمَّعنا ابن رداس قصيدة الحطيئة في الكرم « وطاوي ثلاث » .

وعدنا الى موضوعنا فأخبرنا ناهض بأن الشيخ حمد أخذ بناته – بعد وفاة ابنه محمد – وزوجه وسافر الى أمريكا قبل نصف شهر ، وسيبقى ثلاثة أشهر[1]. ودعنا ناهضا ثم عدنا الى بيت أبي محمد حيث كان العشاء في انتظارنا ، وبعد ذلك عدت الى النزل فوجدت تذكرة من الصديق عبد الرحيم بأنه جاء فلم يجدني .

٢٧ منه كان اليوم هو الاثنين

بكرت في جولة على الرياض الجنوبي : العَوْد ومنفوحة والصالحية .

ثم زرت صديقي الحميم عبد الرحيم الأحمدي في مقره بالدرعية. ومن عنده اتصلنا بصديق صدوق هو الدكتور منصور الحازمي فلم نقدر على ذلك ، ففوضت الأخ الأحمدي بالاتصال به وتحديد موعد للزيارة ، والأحمدي رحيم الحازمي ذاك أن زوجة عبد الرحيم بنت أخي منصور الحازمي .

(١) ولكن الشيخ حمداً لم يعد أو لم تصلني أخباره حتى بعد ستة أشهر من ذلك التاريخ ، أي عند ارسال هذه الرحلة الى ادارة المطبوعات ، ثم عاد بعد ذلك .

عبد الله بن محمد بن خميس :

الشيخ عبد الله المشهور بابن خميس شاعر نجـد ـ اليوم ـ وأديبها ومؤرخها وعلى ما قال المصريون : « بتاع كله » !

اعتزل الرياض وسكن منزلاً في وادي حنيفة بين الدرعية والعينية، وبعيداً عن كل منهما،وكنت اتصلت به على جميع الهواتف المسجلة باسمه في دليل الهاتف الآلي ، والغريب أن بعض من كلموني لا يعرفون ابـن خميس ! فهم مستأجرون ، وهذه اليوم مشكلتنا مع معظم من نريـد الاتصال بهم على دليل الهاتف •

ولكن الأحمدي يعرف بيت صديقنا ، فسرنا بعد عصر هذا اليوم زائرين مسلمين •

فخرجنا الى طريق الرياض ـ القصيم ، ثم سرنا مشملين ثم فرق الطريق يساراً فهبطنا الوادي فوجدنا دار مزورنا على ضفته الغربية ، فقيل لنا : إنه قد خرج فكتبنا له رسيلة تنبىء بالحاصل وعدنا ، وبعد أيام تبلغت تحيات ابن خميس بواسطة الأحمدي •

الثلاثاء ٢٨ منه :

بكرت الى مديرية سلاح الحدود ثم عدت فقمت بجولة في المقيبرة سوق اللحوم والخضار الرئيسي في الرياض ، وأمام أحد الجزارين سمعت أحدهم يقول له : بعشرين ؟ !

قال الجزار : يا عمي هو أحد لاقي لحم بعشرين والا بأكثر ؟! قال الزبون : الدجاجة أم كيلو بسبعة ريال • قال الجزار في

غيظ : أيوه انبسطوا ما دام الطائرات تكر عليكم من الدجاج اللي ما تدرون كيف يذبح !

والبندورة بعد أن كان السطل منها بنصف ريال سمعت من يقول: الكيلو بثلاثة ريالات • وقصارى القول فان الغلاء هنا يكاد يسير في عروق الناس كسريان التيار ، الكل يريد أن يجمع الثروة بأية طريق ، وقد تكون بعض الحاجيات قد ارتفعت في مصادرها ، غير أن الغلاء بهذه الصورة فيه الكثير من الافتعال وسلوك أي طريق يوصل الى باب الثراء •

الأحمدي مرة أخرى

كان لسان حال الأحمدي معي في هذه الرحلة كالقائل : « يامرحبا يا ضيفنا كل ساعة » • فبعد عصر هذا اليوم قمت بزيارة له ، ومن ثم تم الاتصال بالدكتور منصور فحدد لنا ليلة القابلة لزيارته في منزله بالبحر الأحمر •

يوم الاربعاء ٢٩ محرم ١٣٩٦ هـ

جاءني الأخ عبد الرحيم بعيد المغرب ثم ذهبنا إلى الدكتور منصور الحازمي في بيته ، كان معظم الحديث عن الأدب وأخبار المؤلفات والطبع ، والدكتور منصور من أدبائنا البارزين وعميد كلية الآداب بجامعة الرياض ، له مؤلفات ومشاركات جيدة ، معني بدراسة الرواية في الأدب العربي[١] ، وأبى كرمه العربي الا أن يأخذ منا موعداً لتناول طعام العشاء بداره ، ولم تجد محاولات الاعتذار فاشترطنا عدم التكلف بذلك ولم يف ، وتقرر الموعد ليلة الجمعة المقبلة •

(١) ترجمت له في « نسب حرب » •

وأثناء خروجنا تكرم الأخ الأحمدي فوافق على أن يرافقني – بصفته خبير في هذه الديار – في رحلة يوم الجمعة المقبل إلى العُيَيْنة وسدوس وحريملاء •

ثم دعاني لتناول الغذاء غداً عنده على شرف صديق له •

تتناولنا طعام الغذاء عند الأخ عبد الرحيم الأحمدي على شرف صديقه ، وحضر بعض الشباب ، وكانت مناقشة سلبية عن الأدب تم موضوع شعر عمر ابن أبي ربيعة واسلوبه ، وعلقت على قصيدة من الشعر الحر أو النثر الشعري كما نسميه للاستاذ الأحمدي نشرها في الجزيرة ، وشكا الأحمدي أن مصححي الصحف يقطعون المقال ويغيرون العنوان من عندهم •

والحقيقة المرة أن هذا هو الذي أبعد الكثيرين من الكتاب عن مجال الصحافة ، فلا تكاد ترسل مقالاً حتى يبدأ المصحح بمشرطه يستأصل اللباب وعصارة الفكر وينشر القشور • فيحسب هذا على الكاتب •

ومن لطيف أو غريب ذلك أنني أرسلت مقالاً لاحدى هذه الوسائل النشرية فجعلت له عنوناً ساخراً هو « ما خلقنا الا في نعمة » فغيره المصحح « لنرعى النعمة » ونسي أن حرف العلة يجب أن يحذف في مثل هذا ! وحسبت عليّ هذه الغلطة ، وحكى لي أحدهم قال : كنت مصححاً في جريدة كذا ، فكنت لجهلي أحذف عبارات كاملة كيفما اتفق ، فلما فهمت معنى الأدب ضحكت على نفسي ، فقد كنت أحذف ما يصلح للنشر وأنشر عكسه !

وبعد الغذاء قمنا برحلة قصيرة خفيفة استطلاعية إلى وادي

عَقْرباء والجُبَيْلة حيث دارت رحى الحرب بين المسلمين وبين جنود مسيلمة الكذاب في حروب الردة .

ثم عدت الى الفندق ، وبعد المغرب جاءني الأحمدي عند ابن رداس حيث تواعدنا هناك ، ثم ذهبنا الثلاثة إلى منزل الدكتور منصور الحازمي .

حفل الصفوة

دخلنا منزل الدكتور وكأننا بكرنا وكان عنده الاستاذ منصور الخريجي أحد موظفي الديوان الملكي العامر .

وبعد قليل حضر الدكاترة : أحمد محمد الضبيب ، وعبد الرحمن الأنصاري ، ومحمد الشامخ ، واخوة كرام آخرون . ثم حضر الدكتور عبد الله النافع وكيل جامعة الرياض ، وكل هؤلاء الدكاترة من منسوبي جامعة الرياض .

واذا اجتمع قوم على أي مستوى تحدثوا ، وتشعب الحديث ، وكل يجره الى ما يهمه، وكان حديث القوم متشعباً فعلا وكانت الأراضي وبيعها والعمار وأسعاره والبيوت الجاهزة تستحوذ على جادة الحديث، وقد ثبت لي بالدليل القاطع أنني أجهل هذه الأمور ! وكنا نجر الحديث الى الأدب فيتله هذا أو ذاك ليربطه بأنفه في حضيرة تلك المغريات أو قل شؤون الساعة ، ومن سمات الحاضرين كانت : السكوت التام سمة الدكتور عبد الله النافع ، وكأنه يمثل القول:«فم مغلق ومكتب مقفل »! وكان المرح البهيج والدم الخفيف سمة الدكتور الضبيب ، بينما كانت الثرثرة والحديث الذي لا ينقطع سمة ضيف الشرف وكاتب هـذه

السطور.أما عبد الرحمن الأنصاري فكان عالم الآثار ، وأعترف أنه أول من أحرجني في الاستنتاج فكانت تجاربه وسعة اطلاعه ما اصطدمت به في الحديث عن الآثار حول تبوك والرس والتفريق بين تبوك والطبيق في الاحرف اللاتينية ، وانشغل الدكتور الحازمي بالاعداد والتجهيز .

وبالتالي كانت سهرة صفوة فكر الرياض امتدت حتى قرب الثانية عشرة ليلاً ، وفي الخارج رجاني الدكتور الصديق عبد الله النافع أن أعطيه موعداً لتناول طعام العشاء بداره ، ولكني اعتذرت . والعذر عند كرام القوم مقبول . وكان تفضله بقبول اعتذاري كرماً أدين به له، ذلك انني كنت مشغول الفكر أستعد للرحيل في أقرب فرصة. والدكتور عبد الله النافع من الرجال العصاميين وصل الى هذه المرتبة بجده وسعيه بعد توفيق الله ، وهو من قبيلة حرب ، وكنت أرسلت له أطلب ترجمته عند تأليف كتابي نسب حرب ، ولم تصلني منه ترجمة ، وعلمت في هذه الليلة أنه قد أرسلها فلم تصلني ولما أن الكتاب هو الآن في احدى مطابع بيروت مما يقرب من سنة فقد تعذر الحاق الترجمة .

العُيينة وسَدُوس وحُريملاء

عَقْرباء والجُبَيْلَة

حضرت الى منزل الصديق عبد الرحيم الأحمدي في التاسعة صباحاً من يوم الجمعة ، فخرجنا من الدرعية على طريق الرياض — القصيم ، ثم فرقنا يساراً ، وعلى (٢٥) كيلاً من الدرعية وصلنا وادي عقرباء ، واد ليس كبيراً يأتي من الشرق فيدفع غرباً في وادي حنيفة ، عنده حدثت المعارك الدامية بين جنود الاسلام ومرتدي بني حنيفة بقيادة مسيلمة الكذاب ، في أول خلافة أبي بكر الصديق،رضي الله عنه.

وبأسفل عقرباء حديقة نخل يخيل إلى الرائي العريق في البحث أنها الحديقة التي قتل فيها مسيلمة ، ولا تبعد قبور الشهداء عنها سوى كيلين مما يدل على أن المعركة من تلك القبور الى هذه الحديقة وما حولها .

عقرباء في التاريخ

وفد بنو حنيفة من أهل اليمامة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنة العاشرة من الهجرة ، وكان فيهم مسيلمة بن حبيب الكذاب ، وقيل أنه لم يقابل رسول الله ، ولم يسلم عليه وهو ـ لا شك ـ بسبب كفر قد خامر عقله ، ولما رجع أرسل رسالة الى النبي صلى الله عليه وسلم يخبره فيها بأنه نبي مثله ويتهم قريشاً بالظلم ، فرد عليه النبي باسم « مسيلمة الكذاب » فصار من يومها علماً عليه .

ولما مات صلى الله عليه وسلم انقادت بنو حنيفة لمسيلمة فارتدت الا من ثبت مع ثمامة بن أثال الحنفي الذي انضم إلى جيش المسلمين .

وتقدمت جيوش الاسلام وعددها بضعة عشر ألفاً فتواقعت مع بني حنيفة وعددهم يقرب من أربعين ألفاً في أسفل وادي عقرباء إلى بلدة الجبيلة اليوم .

قال الجاسر في « مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ » :

ولما بلغ خالد بجيشه ثنية الأحيسي(١) وجد مجاعة بن مرارة مع ثلاثة وعشرين فارساً من قومه ، نياماً وأرسان خيلهم في أيديهم تحت خدودهم(٢) وقد قتلوا جميعاً إلا مجاعة وخرج مسيلمة الكذاب ببني

(١) تعرف اليوم بالحيسيات وهي صدر وادي حنيفة .
(٢) ص ٥٤ .

حنيفة فنزل « عقرباء » ثم وقعت بين الجيشين معارك في أعلى وادي أباض ، وفي أسفله[1] .

وكانت وقعة عقرباء بجوار الجبيلة هي الوقعة الفاصلة ، ففيها انتصر المسلمون وهزم أعداؤهم بعد معركة من أعنف المعارك قتل فيها مسيلمة « الكذاب » وأربعة عشر ألفاً من أتباعه ، سبعة آلاف في الفضاء خارج عقرباء ، وسبعة آلاف في الحديقة وقيل : بل ٢٤ ألفاً ، وقيل : عشرة . وأستشهد في عقرباء ألف ومئتا شهيد من المسلمين ، منهم زيد بن الخطاب أخو عمر رضي الله عنهما .

ويذكر بعض الباحثين أن عقرباء كانت تشمل الناحية وأن الجبيلة كانت محلة من محلات عقرباء . أما اليوم فالاسم لواد كما تقدم .

وكانت تلك الحديقة في عقرباء تعرف بحديقة الرحمن نسبة إلى رحمان اليمامة وهو اسم أطلق على مسيلمة الكذاب . ثم سميت حديقة الموت بعد ما قتل فيها يوم الحديقة .

ثم صالح خالد مجاعة على بقية « حَجْر » في أخبار طويلة ؛ ثم تزوج خالد ابنة مجاعة فعنفه الخليفة على ذلك ، لأنه كان يريد من القائد أن يتفرغ لأعمال الجهاد وقتال عدوه .

الجُبيْلة

بليدة صغيرة متأخرة كثيراً على ضفة وادي حنيفة الشرقية ، بينها وبين عقرباء ثلاثة أكيال ، وبطرفها من الجنوب قبور الشهداء معروفة ، ومنها هبطنا وادي حنيفة الذي خرجنا منه من الدرعية ، وكأننا ضربنا

(١) المرجع السابق والتفاصيل واسعة في الصفحات من ٤٥ إلى ٦٠

حوله قوساً على ضفته الشرقية ، وقد تقدم معنا أن الجبيلة كانت من عقرباء فلما تأخرت بلدة عقرباء واندثرت صارت الجبيلة بلدة مستقلة ، فيها مدرسة ومسجد ، وبيوتها من اللبن القديم .

العُيَيْنَة

ثم واصلنا سيرنا على وادي حنيفة صعداً ، وعلى سبعة أكيال من الجبيلة وصلنا بلدة العيينة ذات التأريخ المرتبط بالدعوة ، وهي بلدة في صدر وادي حنيفة بيوتها من اللبن ولم يطرأ عليها كثير تغيير ، فيها مدارس ومساجد ، وأهلها متمسكون بالعقيدة المتينة ، تقرأ أسماء أهل كل حي في مسجده صباحاً ، ومن لم يحضر الصلاة بلا عذر شرعي ينكل وهذه سمة جميع مدن نجد عدا الرياض ، وهي لعمري سنة طيبة حبذا المحافظة عليها ، ولكن الشباب غلاب ، والشباب لا يريد هذه العادات التي صرح لي بعضهم أنهم يستهجنونها : وبهم الهجنة . واذا كان هناك من عاداتنا ما يستوجب الطرح فليست العادات الدينية من الوارد في هذا الحساب ، وأي قوم ليست لهم عقيدة متينة ليست لهم روح ولا قاعدة متينة يبنون عليها ، وتأدية الصلاة من أقوى قواعد العقيدة وألزم أركان الاسلام .

الحيسيّات

ثم خرجنا بعد خمسة أكيال من العيينة وأربعين من الدرعية في متسع تأتيه شعاب من عدة جهات كثير شجر الطلع ، هذا يسمى الحيسيات ، وهو صدر وادي حنيفة ومجمع نواشعة العلى . وكان الاسم لثنية ــ كما تقدم ــ ثم أطلق على الناحية وهي عادة عند العرب ــ اطلاق اسم الجزء على الكل وقد يحدث عكس ذلك ــ وثنية الأحيسي تعرف اليوم بالملفات أو السبعة الملفات يأخذها الطريق بعد الحيسيات .

سدوس

سرنا في الحيسيات ثم خرجنا في حزم فهبطنا على بلدة سدوس على « ٦٠ » كيلاً من الدرعية ، بلدة زراعية ذات نخل في واد يتجه من يسارنا إلى يميننا ، وفي البلدة أمارة سدوس ومدارس وعمرانها ليس متقدماً كثيراً ، ولا زال سيرنا في اتجاه الشمال الشرقي عن الرياض مع ميل تدريجي الى الشرق كلما أمعنا في السير .

وفي سدوس توقف الطريق المزفت ، وكاد أن يقف حمار الشيخ في العقبة . غير أن أهلها شجعونا بأن الطريق إلى حريملاء ليس صعباً .

خرجنا من سدوس على طريق ترابية باتجاه الشرق فصعدنا حزماً فعلوناه فأخطأنا الدرب المناسب ، وكنا على « ١٣ » كيلاً من سدوس نكاد نهوي في منحدر كان طريقاً فهجر فخربته السيول ، وجانبه المنحدر أو المنكدر يذهب الى وادي حريملاء ، فعدلنا سيرنا الى الغرب على ظهر مستو من ذلك الحزم أو الجبل كما يسمونه هناك ، ثم عطفنا إلى الشمال فالشرق مع طريق أيسر كثيراً من سابقتها ، وعلى « ٢٦ » كيلاً من سدوس هبطنا وادي حريملاء . ولا شك أن سدوس منسوبة إلى بني سدوس بن شيبان بطن من بكر بن وائل . كانت منازلهم اليمامة ، وكانوا أرداف ملوك كندة ، كانت لهم القرية ــ بالتصغير ، ومأوان ، ذكرهم الحطيئة[1] .

(١) الحطيئة : جرول بن أوس بن جؤية بن مخزوم بن مالك بن غالية العبسي الغطفاني . كنيته « أبو مليكة » وهي ابنته . شاعر هجاء مداح ، دميم الخلق سيء الخُلق . أسلم فارتد وحرض المرتدين وهجا أبا بكر رضي الله عنه ، ثم عاد إلى الاسلام بعودة المرتدين . منعه عمر عن الهجاء وسجنه . ديوانه مطبوع . انظر ص ٤١ تحقيق نعمان أمين طه .

حريملاء

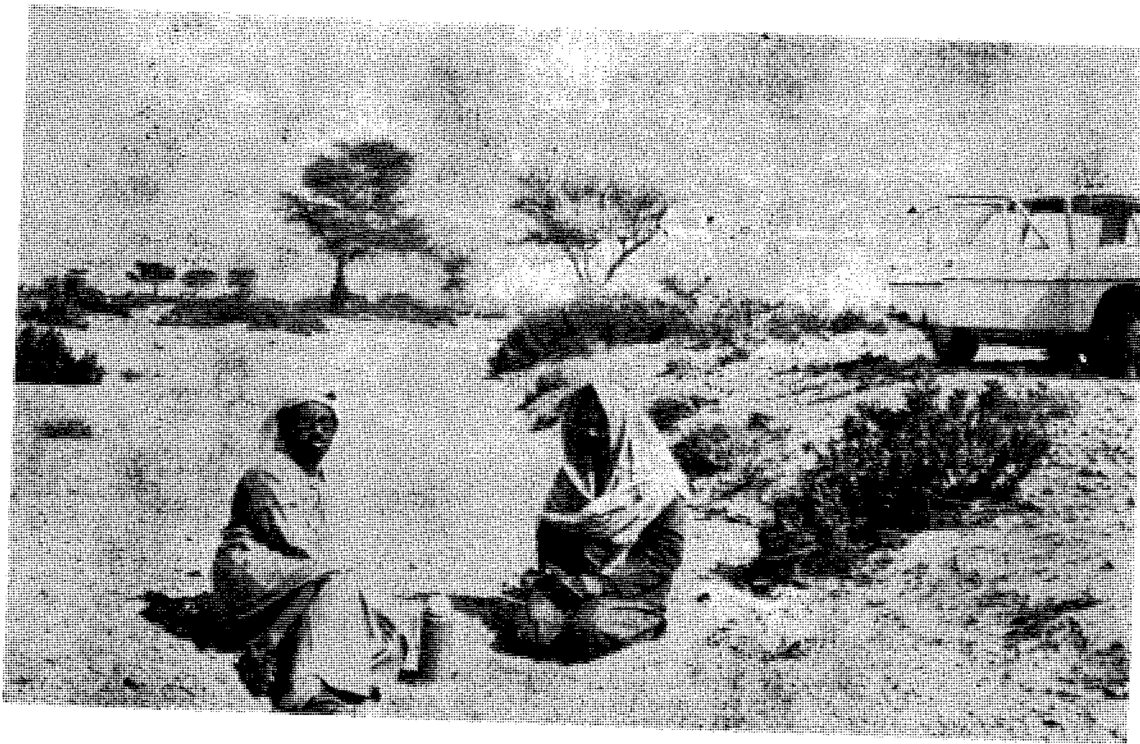
وما أن نزلنا وادي حريملاء حتى كنا قد لقينا من سفرنا نصباً ، فهزعنا إلى جانب السد « سد وادي حريملاء » فجلسنا على بطحاء نظيفة وحضّرنا كوبين من الشاي اللبتن ، وهنا تفضل الأخ الأحمدي فركز مصورته الموقوتة فأخذ لنا رسماً أرسل لي فيما بعد نسخة منه فلما رأيته ورأيت ذلك الطلح الذي قضيت فيه سويعات ممتعة برفقة عبد الرحيم هاجت الذكريات فأردت أن أذكر حريملاء بما تستحق ولو ببيت قد لا يرقى إلى جمال حريملاء الخضراء جارة الوادي ، فأخذت القلم وكتبت لعبد الرحيم :

لقد هاج أشجاني وماكنت شاعراً — تذكر طلحات على سد حرملا (١)
برفقة خل صادق الود ماجد — به تقصر الأيام لو كنّ طُوّلا
رأيت هذاك الرسم فاذكرت رحلة — إلى نجدٍ بين النخيل والتل والفلا
ألا عدن لكن في ربوع تهامة — بمكة أومر الى الفرع فالعلا
مرابع لا نسلوها لو بدّلت لنا — بغوطة جلّقَ أو على النيل منزلا

وتقع حريملاء على « ١٠٧ » أكيال شمال شرقي الرياض ، في واد فحل كثير الشجر عليه سد لحفظ سيوله ، فأرجعت بعده أرض حريملاء وهي مدينة متقدمة نوعاً والعمران الحديث منتشر فيها ولها شوارع مبدوء باصلاحها ، وسوف تشهد نهضة مباركة .

---

(١) حريملاء .



عاتق وعبد الرحيم في وادي حريملاء

لقد كانت الرحلة شاقة ولم تهونها الا روح عبد الرحيم المرحة الدائم الابتسامة ، وما أجمل الابتسامة اذا كانت نابعة من أعماق الروح الصافية ، فهي تظهر وكأنها تريك تلك الروح حاملتها بين يديها بيضاء شفافة نقية ، ولا شك أن روح الأحمدي هي في هذه الصورة فهـو لا يتضجر ولا يعبس ولا يعرف الكلل •

* * *

القُرَيْنَة

وصلنا حريملاء والناس يخرجون من صلاة الجمعة فواصلنا سيرنا فعاد بنا الطريق باتجاه الشرق ، وبعد خمسة أكيال وصلنا مكان على طريق القصيم إلى الرياض يسمى «القرينة»[1] بالتصغير ، فيه مقهى جلسنا فيه فطلبنا ما عنده من غذاء فجاء بما نسميه « كبسة دجاج » وهي طبخ الرز مع الدجاج ، فتغدينا وتحركنا عائدين إلى الدرعية على هذا الطريق ، فوصلنا بعيد العصر حيث نزل الأحمدي وواصلت سيري الى الرياض .

صَلْبُوخ

بلدة صغيرة تقع شمال الرياض على « ٤٥ » كيلاً ، وفي أوراقي — وأنا أبيض هذه الرحلة انها بعد القرينة بثلاثة وعشرين كيلاً ، غير أنني لا أذكر أننا مررنا بها — وهي ناحية عن الطريق العامة ولها طريق معبدة .

عدت الى الفندق فوجدت ورقة من الصديق ابن رداس يقول : حضرت فلم أجدك ، افتقدناك ! وبعد المغرب كنت عند أبي محمد في البحر الأحمر « ابن رداس » فوجدت عنده نفر من أصدقائه عرفت منهم أن معظم نجد قد هطلت عليه أمطار محيية ، وأبى كرم أبي محمد الا

---

(١) جاء في معجم البلدان أنها روضة بالصمان ، وقيل واد . قال : جرى الرمث في وادي القرينة والسدر .

وأنشد أبو زياد لصاعد :

ودار بالشميط فحيياها ... ودار بالقرينة فاسألاها

أن أتعشى معه ، ثم عدت الى الفندق فوجدت ورقة تحت توقيع الأخ الكريم ناصر العلي يقول : علمت بطريق الصدفة بوجودك وترددت على الفندق فلم أجدك ، لا بد من موعد لتشريفي ، اذا غادرت الفندق اترك خبراً عند الاستعلامات •

وتذكرت واستعرضت أسماء أصدقائي فلم أذكر هذا الاسم من بينهم ، وعدت أقرأ الورقة فاذا أسمي الكامل مكتوب فيها ، فاذاً ليس الأمر غلطاً أبداً •

صرفت هذا الأمر من ذهني وتقدمت الى التلفزيون الموضوع في غرفتي والذي لم أفتحه طيلة هذه المدة فأدرت مفتاحه فرفض ! فتناولت بعض الأوراق فكتبت بعض الخواطر أرسلتها في اليوم التالي إلى جريدة الجزيرة ، ولم أعلم حتى الآن أنشرت أم لا ، ذلك أنه لا تتاح لي قراءة جرائدنا كثيراً فأنا أما في جيزان أو تبوك أو رابغ الخ وهي قرى لا يصلها التوزيع الا متقطعاً ، ولذا فاني كثيراً ما تفوتني انتاجات وأخبار مهمة•

السبت ١٣٩٦/٢/٢ هـ

صدر اليوم أمر تعييني ، وبعد العصر كنت عند ابن رداس فاقترح علي أن نزور الأخ النقيب حماد حميّد الصاعدي مدير التموين بأحد فروع الأمن العام ، وهو شاب خلوق ودود يخجلك بكثرة ترحيبه ، وأقسم وأعتذر مراراً أنه لم يعلم عن وصولي الى الرياض ، ثم أصر اصراراً لا يقبل العذر أن يكون عشاءنا عنده الليلة القابلة • وفي عودتنا قمنا بزيارة الأخ عبد الله الزيد العلوي الحربي ، وهو شاب يغريك كلامه قبل طعامه ، يلقاك بالبشر ويودعك بأعذب الألفاظ ، وقد أخذني أحد الأيام في تجوال في الرياض ، قال ــ جزاه الله خيراً ــ أنه يتبرع بمبلغ

ثلاثين ألفاً قرضاً بلا فائدة لمدة سنة مساهمة منه في طبع كتابي « معجم معالم الحجاز » فشكرته وأخبرته أن الكتاب يحتاج إلى ثلاثينات .

الاحـد / ٣ / ٢ / ١٣٩٦ هـ .

لم يكن عندي هذا اليوم ما أعمله تقريباً فعدت بعد الافطار في مطعم اليمامة إلى الفندق وأنا آكاد أتميز غيظاً! ذلك أن الخادم الفلسطيني البدين المتين تعود ــ إذا طلبت كبداً ــ أن يمزجها بالكلى والقلوب لأنها أرخص تكلفة مع أن المكتوب في قائمة الطعام ومصادق عليه من الجهات المسؤولة هو « صحن الكبدة ٣ ريال » وفي هذا اليوم قلت له: (أرجوك كبدة بدون كلاوي ولا قلوب) فقال ــ بلهجة الزاجر ــ : ما فيه كبدة بلا كلاوي ! واشتد النزاع فذهب يأتي لي بمدير المطعم الذي قال : يا أخي الكبدة لحالها ــ صرفة ــ ماتخارجنا .

قلت : ولكنكم عندما تقدمون هذه القائمة والتسعيرة فيصادق عليها لا تقولون هذا الكلام ؟

قال : ما يوافقون !

وأصر القوم على أن لا كبد بلا كلى وقلوب وربما شغث لحم وخصى الخ .. فطلبت متبلاً ، قال ذلك العتل ــ بغضب ــ : ما فيه متبل ، فيه حمص .

المهم انني عدت فاستلقيت على السرير فاذا بالباب يقرع ففتحت فاذا بناصر العلي ، وعرفته ، كانت صلتي به تعود إلى سنة ١٣٧٤ هـ وكنت بالطائف أتردد على مقهى باليمانية وكان لي صديق وشمي يسمى سليمان الدريعان فعرفني على ناصر علي حجازي ، قبل أن يصبح « ناصر العلي » ! كان شاباً يماثلنا في السن بين العشرين والثانية والعشرين من

عمره ، وكان صاحب كشك قرب رغدان[1] ويدرس في المدرسة الليلية، ثم انقطعت أخباره عني إلى سنة ١٣٨٤ ﻫ وقد قابلته في الرياض حيث أصبح تاجراً صغيراً ، وقمنا خلال تلك المدة بنزهات إلى هيت وحائر سُبَيع وبَنْبان وأم الحمام وغيرها[2] .

وقد أصبح اليوم ذا أموال طائلة وثقافة واسعة ، فقال : لقد أعددت كل شيء ، والعشاء عندي الليلة ، بيتي بمنفوحة ، وكعادتي حاولت الاعتذار ولكنه أصر ، فقلت إذا القابلة ، وهكذا صار .

وفي المساء اجتمعنا أنا وابن رداس والأحمدي فذهبنا إلى بيت حماد الصاعدي ، وكان عنده جمع من الشباب ، ودارت مناقشات كالمناقشات السائدة اليوم في الرياض : الأراضي ، زواج القبيلي من الخضرية والعكس ، والناس الذين كانوا فقراء فأغناهم الله من فضله . غير أن أبا محمد دائماً يطعم مناقشاته براوئع من الأدب كبيت شعر أو قصة صغيرة .

وبعد العشاء نظر إلي الأخ الأحمدي قائلا : تستغيث يا أخ عاتق ؟! فنظرت إلى حواشي المشلح فاذا أنا قد لبسته مقلوباً ! فقلت هذه بشارة لي بأني دخلت عالم الفكر ! فما ذكر عن صعلوك أو عامي أن الغفلة تبلغ به هذا ، ولكن ذكر أكثر من هذا عن المفكرين ! فهذا الخليل ، ابن أحمد الفراهيدي يصطدم باحدى أساطين المسجد فيقضي نحبه ، وهذا مفكر غربي يطرق بابه فتقول له خادمته : سيدي ليس موجوداً . فيدبر قائلاً : حسناً سأعود متى جاء !

وعلى العموم لفتة الأحمدي لي لفتة غير العاذر اذ قالها بصوت مسموع لافتاً نظر الجميع .

---

(١) رغدان : قصر للأشراف على مدخل الطائف من جهة نجد .
(٢) اماكن من ضواحي الرياض .

الاثنين ١٣٩٦/٢/٤ هـ

قمت صباحاً بزيارة زميلين في الضيافة العسكرية ، وبعد المغرب حضر مندوب من الأخ ناصر العلي فأخذني إلى منزله ، وهناك كان جمع بسيط مثقف حسبت أحدهم من الصحفيين ومع أنني كنت معنياً في هذا الجمع الذي تغلب عليه الطباع الغربية وتقلد السلاسل واطالة السوالف بعدم الكلام ، الا أن العلي ــ حفظه الله ــ قدمني لهذا الخليط ككاتب عدد من مزاياه ما لم أحلم به بعد عشرين سنة ، فثارت المناقشة حول التراث والأدب المستورد والتقاليد والعادات ، ولفت نظري ظاهرتان تزعمهما شابان جامعيان : الأولى ــ تقول : إن التراث طعام العجزة وان علينا أن نبحث عن العلم الحديث لنتقدم مع الأمم المتقدمة. فقلت له : ومن قال لك أن التراث الاسلامي يتعارض مع العلم الحديث، ان تراثنا هو الأساس والأساس المتين يمكنك أن تبني عليه أي بناء من أي نوع ، وأن الذين يستوردون تلك العلوم بلا أساس متين من تراثهم الاسلامي الخالد كمن يبني فوق الرمال . ليس هذا كل ما قيل انما خلاصته .

والأخرى عندما التفت إلى شاب حسن المظهر جميل المحيا وقال: طالما تحدثتم عن التراث وجعلتم العقيدة الاسلامية أساسه وما وافقها يتمسك به وما نافاها يهمل فهل في هذا التراث وهذه العقيدة الا يتزاوج القبيلي مع الخضيري ؟

كانت مشكلة حقاً تثار في مجلس كهذا ولو أن الجواب عليها من أبسط ما يكون غير أنني سبق أن اصطدمت بأناس أعطوا حظاً من العلم ومع هذا فهم يجسدون هذه الظاهرة ويتشبثون بها بكل ما أوتو من قوة والمجلس كان خليطاً من هؤلاء وأولئك .

قلت : القاعدة التي نرتكز عليها في هذا الموضوع هي أحاديثه

صلى الله عليه وسلم : من أتاكم ترضون دينه وخلقه فانكحوه • وقوله: لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى • وغيرها كثير • فانبرى شاب فقال : ألم يقل صلى الله عليه وسلم : تخيروا لنطفكم ان العرق دساس ؟ ويقول : اياكم وخضراء الدمن ؟

قلنا : أما قوله صلى الله عليه وسلم تخيروا ــ الحديث ــ فيعني أن تبحث عن البيت الذي تتوفر فيه الرجولة والشهامة والكرم ، وهذه تتوفر في الخضيري كما تتوفر في القبيلي ،وليس المعنى بهاالعرق والعنصر فكلكم لآدم وآدم من تراب •

أما خضراء الدمن فقد فسرها في نفس الحديث ، فقال وهو أصدق من قال : المرأة الحسناء أو الجميلة في المنبت السوء • أو كما قال • وهذا واضح أنه يقصد المرأة التي تروقك في بيت فاسد ، ولا بد أنها قد حملت من تلك الطباع ، والفساد ما قد يكون في القبيلي كما هو في غيره وقد يحدث في أعرق الاسر وأشرفها •

ولكن اللجاجة طالت وقاتل الله اللجاجة •

يتخاصمون على التوافه   قاتل الله اللجاجه
وكل مبلغ مجدهم   تصنيف قومهم « هراجه »
قد صعد الغرب القمر   والقوم في خم الدجاجة

ما هي أسباب خضيري وقبيلي ؟

من أين أتت تسمية الخضيري والشدني والصانع وغيرها ؟ عرب الجزيرة من ميزاتهم حفظ الرواية وتداولها مئات السنين ، وقد قال لي شيخ من أهل نجد : الخضيري : نتيجة تزاوج العرب من

الزنوج ، والشدني : عبد تولد ومع مر الزمن تغيرت بشرته فصار لا يختلف عن العرب الا في ملامح معروفة لديهم ، ثم قال لي : مثل فلان فاذا فعلاً هناك ملامح تميزه عمن حوله .

فلمَ تسمية ناتج التزاوج بين عربي وزنجي « خضيري » ؟

هذا أمر معروف في لغتهم، فالخضرة عندهم خلط البياض بالسواد، فالفرس أو العنز الخضراء هي التي يختلط شعرها سواداً ببياض ، واللبن الخضارة هو ما خلط بالماء .

اذاً كلمة خضيري هنا معناها الخلط .

أما الصناع فهم عرب اضطرتهم ظروف معيشية معينة إلى احتراف ما يأباه العربي فنبذتهم قبائلهم فانبتّوا فلا يزاوجهم أحد .

ولكن هل جواز التزاوج بين الاجناس المختلفة لم يكن معروفا عند العرب قبل الاسلام ؟ بلى ، كان معروفاً وأوضح دليل واحد نسوقه لك هو زواج قرشية ــ وقريش أشرف العرب ــ من عبد دعي .

زواج أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ــ وهي أم عثمان ابن عفان رضي الله عنه ــ بذكوان مولى أمية بن عبد شمس .

قال ــ يعني الحطيئة ــ يمدح الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيط ، واسم معيط : أبَان ابن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس ، واسم أبي عمرو : ذكوان ، وإنما كان عبداً لأمية من سبي الشام ، وحديث ذلك : أن أمية نافر هاشم بن عبد مناف ، إلى عبد العزّى بن نوفل على خمسين ناقة سوداء الحدقة ، وعلى أن يخرج المنفور منهما عن مكة عشر سنين ،

فنفّر هاشماً على أميّة[1] ، فأخذ ـ هاشم ـ الإبل فنحرها وأطعمها الناس ، وخرج أمية عن مكة فنزل بالشام عشر سنين ، فلما قدم مكة ، جاء بذكوان ، واستلحقه من سبي الصفّورية معه فنسب إليه .

وتصداق ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يقتل عُقبة بن أبي معيط ، قال : يا معشر قريش أَأُقتل بينكم صبراً وأنا رجل من قريش ؟

فقال له عمر بن الخطاب : حنَّ قِدْح ليس منها .
وخلف ذكوان على امرأة أمية[2] .

وكانت بعد أمية تزوجت عفان بن أبي العاص ، ثم عقب عليها ذكوان ، فأبناء ذكوان أخوة عثمان من أمه .

فهذه امرأة من أعرق العرب وزوجة من ينافر هاشما على شرفه ، تتزوج عبداً فيصبح أبناء ذلك العبد أخوة خليفة المسلمين ، ولم نعرف أن أحداً أعاب بها بني أمية أو عير بها قريشاً، وقد بلغ بنوها من السؤدد إلى أن يقف الحطيئة أمام أحدهما وهو الوليد بن عقبة بن أبي معيط فيمدحه بهذه القصيدة ـ أبيات منها ـ :

عفا تؤَم من أهله وجُلاجِله ... فردت على الحي الجميع جمائله
يعالين رقماً فوق عقم كأنه ... دم الجوف يجري في المذارع واشله
كأن النعاج الغر وسط رحالهم ... اذا استعجمت وسط الخدور مطافله
أبى لابن أروى خلتان اصطفاهما ... قتال إذا يلقى العدو ونائله

(١) المنافرة أن يقول الرجل لقرنه : أنا أعز منك وأكثر نفراً ، ثم يقول الثاني مثل ذلك ، فيحتكمان إلى آخر يحكم بينهما ، فيكون الفائز نافراً، والآخر منفوراً .
(٢) ديوان الحطيئة : ٢٣٨ إلى ٢٤١ .

وقد يقول قائل : متى كان مدح الشعراء حجة ، وهم الذين مدحوا من لا يستحق المدح بالاجماع ؟. فنقول : معكم حق . ولكن الحجة كل الحجة في ذلك النسب والحسب ، وزد على ذلك أن أم أروي هذه : أم حكيم بنت عبد المطلب البيضاء تَوْءَمة عبد الله أبا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمة النبي عليه الصلاة والسلام .

أما بعد ظهور الاسلام ـ وهو ما يليق بنا اليوم ـ فشأن الزواج معروف وقصصه تطول وتعد بالعشرات بل بالمئات .

فماذا يريد هؤلاء وماذا يبغون ؟ وقد عرضنا لهم أن ذلك من ديدن العرب في الجاهلية والاسلام ، وان كثيراً من خلفائهم وملوكهم أبناء إماء ، وأيهما أشرف أمَة ؟ أم عربية كل ذنبها أنها لم يعد أهلها يستطيعوا اللحاق بنسب القبائل ؟ انها مأساة يجب على أهل الفكر والعقل وعلماء الأمة وفقائها أن يتصدوا لها ويبينوا اضرارها وعواقبها للناس .

ولا تقل عنها مأساة تلك التي يدعي أهلها أن لهم درجة على الناس فلا يزوجون بناتهم الا لطبقتهم الخاصة ، ونسوا أن محمداً صلى الله عليه وسلم زوّج قرشية من مولى ثم تزوجها هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعده .

٣

الرّياض

آ ـ انطباعات :

نهضة عارمة جبارة تكاد تسمح أطيط التخلف تحتها ، وطقطقة أضلاعه ؛ هدم وبناء ، تعبيد شوارع واسعة مستقيمة تشبه أطرافها حواف المساطر ، حدائق غناء تزدان بالباسقات ، عمائر شاهقة صاعدة كالأبراج تعانق عنان السماء ، تطور سريع أسرع من كل تصور ، ونمو مطرد لا تشهده أية مدينة أخرى في الشرق الأوسط ، فقد غبت عن عمان ثمانية عشر سنة وعندما زرتها في العام الماضي استطعت ــ بكل سهولة ــ أن اهتدي إلى جميع بيوت أصدقائي ، وغبت سنتين فقط عن الرياض فتهت فيها ، ولم أكد أجد البطحاء ! مدينة أخذت تزحف في كل اتجاه فصارت تشمل مدنا كانت أقدم منها كالدرعية ومنفوحة وبعض قرى وادي حنيفة الأخرى ، وتضاعف عدد سكانها خلال النصف الأخير لهذا القرن عدة مرات فأصبح يقدر اليوم بـ « ٧٠٠٠٠٠ » نسمة ، ولن تمضي عشر سنوات أخرى الا وقد تضاعف عدد سكانها مرة ثانية، انك أينما سرت وحيثما اتجهت ــ في الرياض ــ لا ترى غير بناء وشق طرق ومهندسين يخططون الشوارع وآخرين يستلمون أو يسلمون أعمالاً أنجزت .

ورافق ذلك تضخم مالي هائل ففاضت الثروة حتى أصبحت لا تقدر وغليت السلع الاستهلاكية ، وفسدت ضمائر الكثيرين فصاروا يبيعون

كما يشاؤون ، وقد يبيع عليك غرضاً بخمسة ريالات ـ مثلا ـ ويبيعه على آخر بعشرة •

وليس هناك تسعيرة متبعة ؛ وغليت الأراضي حتى وصلت القطعة ٤٠ × ٤٠ متراً في بعض المواقع عدة ملايين من الريالات !

الموقع

تقع الرياض بالنسبة للجزيرة العربية في ثلثها الشرقي تقريباً ، إذ المسافة بينها وبين جدة نيف وألف كيل ، وبينها وبين الدمام نحو نصف هذه المسافة أو أقل قليلاً •

وكذلك فيما يقرب من ثلثها الشمالي • وبالتحديد بين خطي الطول ٤٦° و ٤٧° ، وخطي العرض ٢٤° و ٢٥° •

وهي في فسيح من الأرض على جانبي وادي البطحاء المعروف قديما بالوتر ، له ذكر في الشعر العربي ، ويمر شمالها وغربها وادي حنيفة ، الوادي الفحل كثير القرى ، وسيأتي ذكره ، وتتصل الرياض بأقاليم المملكة الأخرى بأربعة طرق رئيسية معبدة هي : طريق الحجاز ، وطريق القصيم ، وطريق الجنوب وطريق المنطقة الشرقية « الأحساء » وتتصل بالمنطقة الشرقية ـ أيضاً ـ بسكة حديدية ، وتتصل بالعالم بواسطة مطارها العالمي ، واذا استثنينا هذه الطرق فان اقليم اليمامة الذي تقع فيه الرياض يقع في موقع استراتيجي ممتاز تحيط به النفود من جميع جهاته مما يجعلها في مأمن من غارات الأعداء ومن أي غزو يشن ضدها ولذا تعتبر من أمنع العواصم موقعاً •

وعن قرب تحيط بها من الغرب والشمال الشرقي سلسلتان من الجبال : طُوَيق من الغرب والعرمة من الشمال الشرقي ، ومن الجنوب الشرقي جبال هيت ، وهي بعيدة نوعاً •

تاريخ الرياض[1]

ليست هذه الرحلة كتاب تأريخ ، وانما أردت أن أعطي القارىء لمحة عما قد يتساءل عنه .

كانت الرياض تسمى « حَجْر » مدينة كان يسكنها قبيلتا طسم وجديس ، فعمرتها وبنت فيها القصور وزرعت الحدائق وفجرت العيون فحاق بهم حائق الأزمان فاندثروا ، وبقيت منهم بقية كانت تعرف ببني « هِزّان » من طسم ، مع خلاف في ذلك .

ثم سكنت بنو عنزة حجراً[1] .

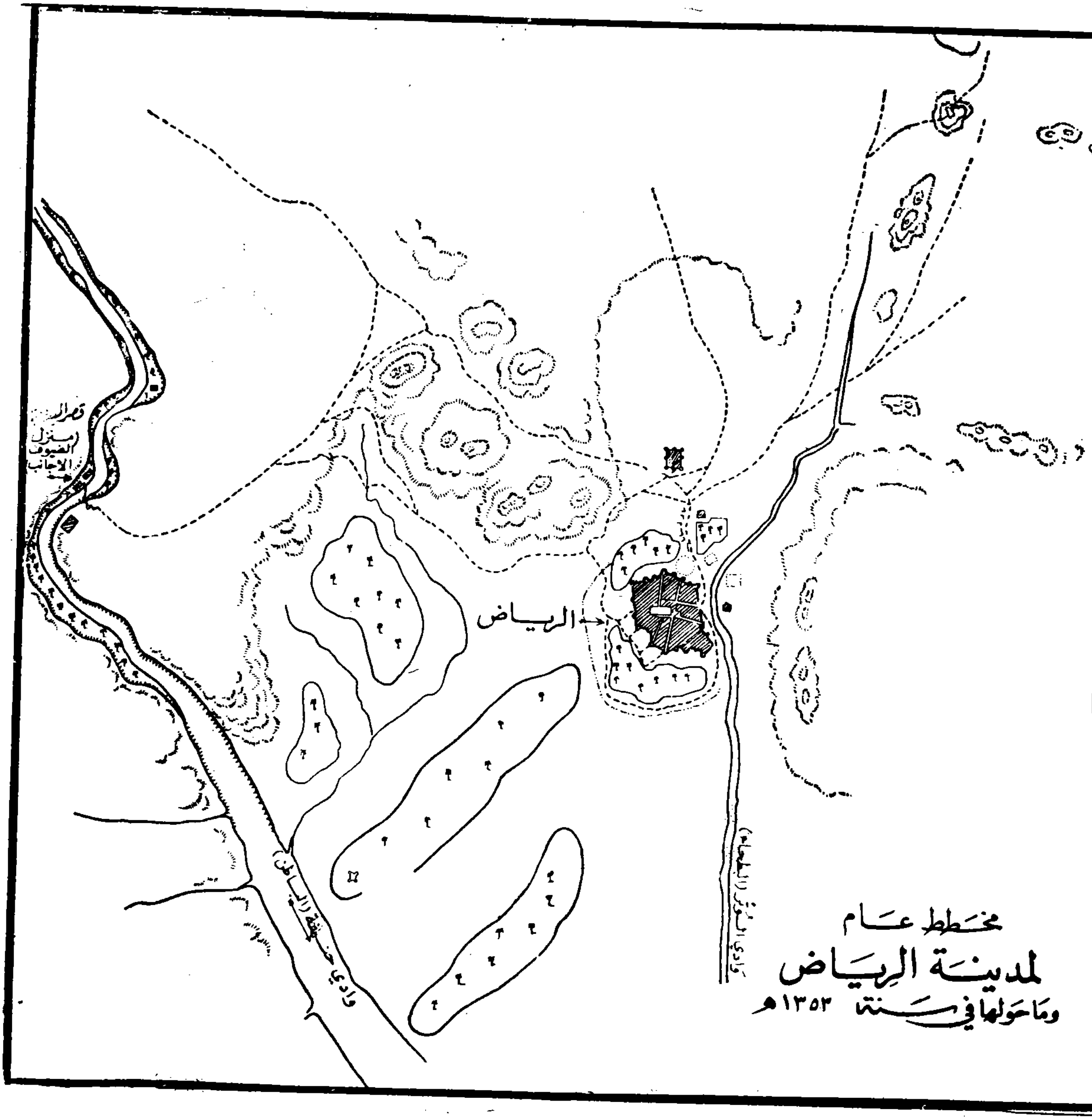
ثم جاءت بنو حنيفة من أطراف الحجاز فسكنت حجراً ونسب الوادي الرئيسي فيه لها « وادي حنيفة » .

وأول من سكنها عبيد بن ثعلبة بن يربوع الحنفي[2] في أخبار تطول .

ثم ازدهرت حجر في عهد بني حنيفة في الجاهلية ثم صدر الاسلام، فأصبحت قصبة اليمامة ، ومقرّ ولاتها ، واتخذها العرب سوقاً من أسواقها[3] .

---

(١)و(٢) معجم البلدان : حجر ، وتأريخ مدينة الرياض : ١٨ وما بعدها .
(٣) تأريخ مدينة الرياض ٤٢ .


مخطط عام
لمدينة الرياض
وماحولها في سنة ١٣٥٢هـ
الرياض
منزل
الضيوف
الاجانب

وعند قيام الدولة السعودية الأولى احتلت الدرعية مكانة حجر فصارت عاصمة اقليم اليمامة ، وكثيراً ما تبعها أقاليم أخر فاستمر ذلك من سنة ١١٥٨ إلى سنة ١٢٣٣ ، وهو تأريخ تدميرها على يد المصريين .

وفي سنة ١٢٤٠ هـ تم طرد المصريين صلحاً من حجر بعد أن صار اسمها الرياض فاتخذت عاصمة الدولة السعودية . ويقول الشيخ حمد الجاسر : في القرن الثاني عشر أطلق اسم الرياض على ماتبقى من المحلات القديمة من مدينة حجر : « معكال » و « مقرن » و «العـود»وغيرها[١] ويظهر أن حجراً عندما تزعزع مركزها بقيت مزارع على شكل رياض ــ جمع روضة ــ فأطلق عليها هذا الاسم .

ومن أحياء الرياض المشهورة اليوم : البحر الأحمر في الشرق ، ودخنة في الوسط ، والعود في الجنوب ، ومنفوحة في الجنوب أيضاً ، وهي بلدة الشاعر الأعشى[٢] صاحب الرائعة « ودع هريرة » .

والتي يقول فيها :

ودّع هريرة إن الركب مرتحل ، وهل تطيق وداعاً أيها الرجل ؟
غراء فرعاء مصقول" عوارضهـا تمشي الهوينا كما يمشي الوجل،[٣]
كـأن مشيتها من بيت جارتهـا مر السحابة ، لا ريث ولا عجـل

(١) تأريخ مدينة الرياض ٩٤ .

(٢) هو ميمون بن قيس بن جندل البكري الوائلي من ربيعة ، لقب بالأعشى لضعف بصره . ولقب « صناجة العرب ». ويكنى بابنه بصير الذي ذكره في يائيته « ذريني لك الويلات » .

(٣) غراء : بيضاء ، وأصل الغرة بياض في مقدمة رأس الدابة . فرغاء : طويلة شعر الرأس . العوارض : الأسنان . الوجي : من به حفا في خفه أو حافره .

تسمع للحلي وسواساً إذا انصرفت كما استعان بريح عشرق "زجل[1]

إلى أن يقول :

قالت هريرة لما جئت زائرها : ويلي عليك ، وويلي منك يا رجل

بقي أن تعلم أننا في بلد هذه البلاغة وهذه الفصاحة ، وقبلها في بلد القرآن والرسالة الخالدة ، أننا نهجر هذه اللغة الشاعرة ، اللغة التي وسعت كتاب الله وحديث أبلغ البلغاء صلى الله عليه وسلم ، وندرس أبناءنا العلوم الحديثة باللغة الأجنبية ، ذلك أن بعض الأساتيذ المستغربين يروّجون ـ كما تعلموا هناك ـ بل يؤكدون أن لغتنا لا تستوعب العلوم الحديثة ، ولذا فلا بد من تدريس هذه العلوم ـ كالطب ـ باللغة الانكليزية[2] .

ألم تصدر هذه اللغة علوم الأولين لأوربا ؟ ألم يترجموا عنها كتب الطب والفلك والحساب ويدرسونه في جامعاتهم إبان قيامها .؟ أكانت تستوعبه ثم ضاقت ؟ إن هذه اللغة ستظل قوية سليمة ما حفظ الله لها هذا الكتاب وما كان من أبنائها غُيُر منافحون عنها ومكافحون ، وستبقى لغة الجنة إلى دخول الجنة .

(١) الوسواس : حسيس صوت الحلي ونحوه . العشرق : نبات شبيه بالسنا ولكنه من الزواحف كريه الرائحة له ثمر كسنف القتاد ، ماؤه دواء ضد السموم .

(٢) هذا المذهب روج له المستشرقون ، وتلقف ذلك بعض أبنائها فروجوا له ، ولو أنصفوها لقالوا غير هذا .

قبائل العارض

اليمامة اسم الاقليم الذي تتوسطه مدينة الرياض ، ويطلق عليه اليوم اسم العارض ، وهو اسم قديم أيضاً فالعروض من نجد معروفة في الأدب العربي وقبائل العارض اليوم هم :

١ ـ قبيلة سُبَيع : وهم بنو سبيع بن عامر ، وكانت ديارهم الخرمة ورنية ثم حدثت حروب بين بني عامر بن سبيع والقريشات من الغلباء من سبيع ؛ فآزر أمير مكة قبيلة القريشات التي انضمت إليها قبائل الغلباء ، وانضمت بنوعمر بن سبيع إلى بني عامر ، فأرسل الشريف جيشاً أجلى بني عامر وجزءاً من بني عمر فنزلوا الوشم وأطراف العارض الغربية،وكانت تدعى ديار بني خالدفاضافتهم بنو خالد وعاشوا زمناً في وئام وتآخ ، ثم حدث بينهم نزاع فحرب فتغلبت بنو سبيع على بني خالد فأجلتهم إلى الأحساء ؛ وتضرب اليوم قبيلة سبيع النجدية[1] شبه دائرة حول الرياض حيث لها حائر سبيع المعروف عند التقاء وادي حنيفة بوادي لحاء ثم تمتد شمال الرياض وشماله الشرقي على العرمة والصياهد وعدود رماح والرمحية .

وهي فرعان :

أ ـ بنو عامر : وهذه جلت كلها إلى هذه الديار ولم يبق لها بقية في الحجاز .

وفروعها : بنو حميد، عجمان الرخم، الفدعاء ، العيادين ،الضعفة.

ب ـ بنو عمر : الحمالين ، النبطة ، الصملة ، العزَّة ، آل علي .

---

(١) ذلك أن القبيلة الأم لا زالت في ديارها في الحجاز .

والذين لا زالوا في الخرمة : الجبور ، المدارية ، يسكنون الغريف قرب الخرمة ، العرينات • ولمعظم فخوذ بني عمر بواقي في الحجاز[1] •

٢ ــ السهول : قبيلة من سبيع منفصلة عنها ، ويقال أن بهـا أحلافاً من مطير وغيرها ، والحلف بين القبائل معروف مألوف ، وتسكن هذه القبيلة شمال العارض والوشم الشرقي ، ويذكر لنا صاحب كنز الأنساب من فروعهم :

آ ــ الظهران : ينتمون إلى المشاعبة من سبيع

ب ــ آل محيميد : ينتمون إلى المشاعبة من سبيع •

جـ ــ البرزان : ينتمون إلى برزان مطير[2]

د ــ السربة : من قحطان •

هـ ــ المحلف : من الشماسات من سبيع ، ومن آل محلف :

(١) آل عوين ، في الخرج والحوطة ــ حوطة بني تميم ــ وآل ثامر في المحمل ، وآل عجلان في الرياض •

و ــ آل موضوع •

ز ــ القبابنة ، ومنهم : القبابنة في ضرمى ، وابن حسن في الدمام •

ح ــ آل قنيان : في الأحساء من سبيع •

ط ــ آل عامر : في الأحساء من سبيع •

ى ــ آل هديب : في الأحساء من سبيع[4] •

---

(١) عن تلك القبائل وغيرها ، انظر : معجم قبائل الحجاز •

(٢) المعروف في مطير البرازات ، والنسبة إليهم برازي •

(٣)و(٤) كنز الأنساب للشيخ حمد الحقيل : ١٧٦/١٧٧ ولي مآخذ على كنز الأنساب لكثرة غلطه في القبائل الحجازية ، غير أن نقلنا عنه في القبائل النجدية هو نقل عن صاحب الدار العارف بما في داره •

٣ ـ العجمان : قبيلة معروفة في نجد مشهورة بالشجاعة وقوة المراس ، ليست من سكان العارض الدائمين بيد أنها تنتجع هذه الديار وتقرب من الخرج ، وقد رأيت قرية بسفح جبل هيت من الغرب شرق طريق الخرج فقيل لي إن سكانها من العجمان ، وليست فروعها واردة هنا لالتزامنا بخط الرحلة فقط ، ولعدم ثقتي بما بين يدي من مراجع حيث تكثر أغلاطها المطبعية .

الحركة الأدبية في الرياض

يعود تأريخ الحركة الأدبية في الرياض ـ بالمفهوم الحديث ـ إلى سنة ١٣٧٢ حين تأسست أول صحيفة بالرياض هي « اليمامة » أسسها حمد الجاسر ثم مجلة المعرفة سنة ١٣٧٩ هـ ثم جريدة القصيم ١٣٧٩ هـ ثم احتجبت ، ثم مجلة الجزيرة ١٣٧٩ ثم صارت جريدة إلى اليوم ، ثم جريدة راية الاسلام ١٣٧٩ هـ ثم احتجبت هي والمعرفة ، ثم جريدة الرياض ١٣٨٥ هـ حتى الآن . ثم تتابعت الصحف والمجلات ، وعرف في الرياض شعراء وأدباء جلهم استوطن المدينة في الوظائف الحكومية، وإذا استقرأت تراجمهم وجدت جلهم من الحجاز ، واخرون من القصيم ومن الأحساء وعسير .

غير أن حركة الأدب ـ بمعنى الأدب ـ كانت راكدة خلال السنوات الفائتة ، فالصحافة انشغلت بالخبر ، والتافه من القول ، وظهرت فيهم طبقة ذات مزاج خاص كثيرة النقد قليلة الانتاج ، وقد يلقون مقالة أدبية هادفة في سلة المهملات بينما ينشرون لك هراء تحت عنوان « قصيدة من الشعر الحر للاستاذ فلان » وبالحرف الكبير المحبر ، فتقرأ كلمات جميلة منمقة لا يربطها رابط أو يؤلف بينها سياق.

وتأسس النادي الأدبي قبل ما يقرب من سنة ولكن ليس له أي

نشاط ، وكثيرون قابلتهم ليسوا أعضاء في النادي ولا يكنون له كثير مودة ، وقال بعضهم انه لم يدع له • واذا خرج بين حين وآخر كتاب أو قصة انهال عليها النقد من أناس لا يقدمون للأدب شيئاً ؛ ونحن شعب لا يعرف معنى النقد[1]، فالناقد يقدم المساوىء فقط ، والقارىء يهرب عن أي كتاب سمع أن فلاناً هاجمه ونقده باعتباره — في عرفه — لا يصلح طالما أن الناس قالوا : قد أخطأ في كذا ولم يوفق في كذا ؛ واذا استثنينا صفحة في مجلة اليمامة وشذرات في صحيفة الجزيرة فالأدب مفقود في صحافتنا ، في الرياض • أما الطباعة فعرفتها مدينة الرياض لأول مرة سنة ١٣٧٤ هـ عندما أسست مطابع الرياض بهمة الشيخ حمد الجاسر واشتراك كثيرين معه ، ثم صارت مطابع أخرى بعد ذلك كمطابع الجزيرة اليوم ومطابع اليمامة وغيرها •

أودية الرياض

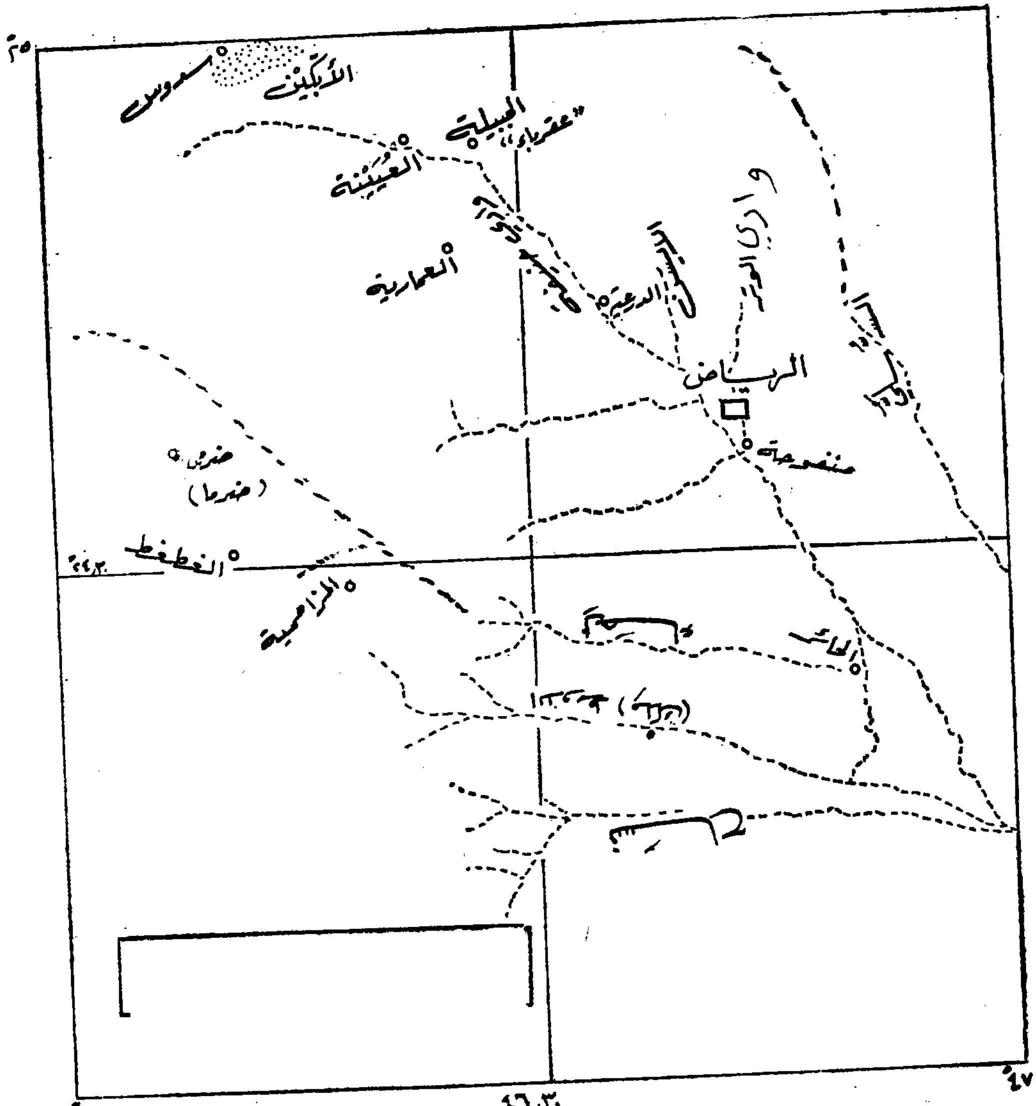
حيث توجد الأودية توجد المياه ، ويوجد الخصب والنماء ؛ فيكثر الزرع وتعمر الأرض ، وفي العصور السابقة يعتمد عمران الأراضي الداخلية على قدر صلاحيتها للزراعة •

واذا اكتنفت الأودية أرضاً ما كان الرواء والرجع ، وكلما كان الوادي متعرجاً كثير المضايق كانت مياهه أغزر ، ولذا تعمد الحكومات إلى إنشاء السدود لترويض الماء وتخليب فائضه في جوف الأرض ليستخرج على هيئة عيون جارية أو آبار يضخ ماؤها •

وكلما كان الوادي واسعاً مستقيماً في انحداره قل الرواء فيه وانفلتت مياهه وضاعت هدراً •

---

(١) ليس هذا بالضرورة منطبقاً على كل نقادنا ، فمعذرة •



أودية الرياض بتصرف عن كتاب المجاز :

وللرياض أودية تكتنف ما كان يعرف بحجر « الرياض اليوم » تسيل من جبال تحصل على فرص مناسبة من الامطار بالنسبة الى عموم الجزيرة العربية ، ولذا عرفت حجر قديماً بكثرة مزارعها ونخيلها وأكثر المؤرخون والرحالون من وصف ذلك •

وهذه الأودية هي :

١ ـ وادي حنيفة :

واد فحل من أودية اليمامة كثير المزارع والقرى ، خضر نضر دائماً وابداً •

يأخذ أعلى مساقط مياهه من الصفر الواقعة غرب بلدة سدوس شمال الرياض ، ويأخذ معظم روافده من جبل « طُوَيق» تلك السلسلة التي تمر غرب الرياض ممتدة شمالاً موغلة إلى مدى بعيد •

ويجري وادي حنيفة باتجاه الجنوب في تعرج وكثرة روافد مما جعله أبداً ريان مرجعاً • وتتجمع روافده العلى في الحيسيات «الأحيسي»(١) المارة معنا فيما تقدم ، ثم يمر بالعيينة فالجبيلة ، حيث يأتيه من الشرق وادي عقرباء ، ثم ينحدر إلى الملقى حيث تجتمع فيه ثلاثة أودية : حنيفة نفسه ، والملقى المسمى به المكان ، والعمارية • ثم ينحدر في تعرج الى الدرعية ، ثم الى أن يمر بصياح وعُتَيِّقة ، فيمر غرب الرياض ، وعليه جسر يعتبر المنصف بين أعلاه وأسفله كما يقول ابن خميس، وقبيل الجسر يكون قد رفده من الغرب وادي نمار: وادعذب الماء مدت مياهه الى الرياض• ثم يستمر الوادي فيمر غرب قرية منفوحة ثم يأتيه وادي الوتر من اليسار ثم ينحدر حتى يجتمع بوادي لحاء في حائر سبيع، ثم

(١) كانت ثنية لها ذكر في حروب الردة ثم أعطت اسمها لصدر وادي حنيفة •

تذهب مياه تلك الأودية إذا اجتمضت متجهة شرقاً مندفعة فيما يسمى بوادي السهباء المار بمدينة الخرج ، والذي يعود الفضل إليه في كثرة مياه الخرج حيث أنه مجمع أودية ذات سيول عظيمة • وكان وادي حنيفة يعرف ب: « العِرْض » ويعرف أيضاً بالباطن •

٢ ـ وادي لحاء :

نهي عظيم يمر غرب الرياض وغرب وادي حنيفة المتقدم • يأتي من أطراف الوشم الشرقية وعليه كثير من مدن ذلك الاقليم ، ثم يتجه جنوباً شرقياً بين سلسلتي طويق « عارض اليمامة » ويأخذ روافده منهما من اليمين والشمال ، ويمر ببلدة ضرمة ثم بديراب «دعاه ابن خميس أديراب ، » ثم يجتمع مع وادي حنيفة في حائر سبيع •

وهو واد واسع كما أسلفنا مستقيم ليست به عرج تذكر ، ولذا تقل مياهه وبالتالي يقل سكنه عن وادي حنيفة ، ويأخذه طريق الحجاز منذ أن يهبط ديراب الآتي ذكره إلى بلدة مراة ، وأعلى وادي لحاء كان يسمى قرقرى له ذكر في كتب الأدب ، وأسهب ابن خميس في ذكره[١] وليست هذه الرحلة لاستيفاء النصوص وانما وصف مشاهدات •

٣ ـ السُّلَيّ :

واد يسيل من السفوح الغربية لجبل العرمة الآتي ذكره ، ثم ينحدر مجنباً بين سلسلة جبال العرمة شرقاً يساره ، وبين عرق بنبان يمينه ، ثم يمر شرق مدينة الرياض ، وبينها وبين الخرج ، ولا شك أنه اذا فاض ماؤه يتصل بالسهباء مجمع الأسيال في اليمامة •

(١) المجاز : ٣٩ وما بعدها •

وهو واد قاحل ليس فيه زرع ولا سكن دائم غير أنه سهل متسع يشبه الروضة فاذا ربع كان من أحسن المرابع فيخرج إليه أهل الرياض في خيام يتنزهون خلال فصل الربيع ، وقد بدىء الآن بمشروع مطار الرياض العالمي في مساحة من السلي يسار الطريق إلى الأحساء ، يقدر ضلع مربعها بثلاثين كيلاً •

٤ ـ وادي الوتر :

ضم واوه الجاسر ، في تأريخ مدينة الرياض ، وكسرها ابن خميس في المجاز ، واتفقا على تسكين التاء المثناة فوق •

وأورده ياقوت بقولين : الضم والكسر • ولم يضبط في ديوان الأعشى :

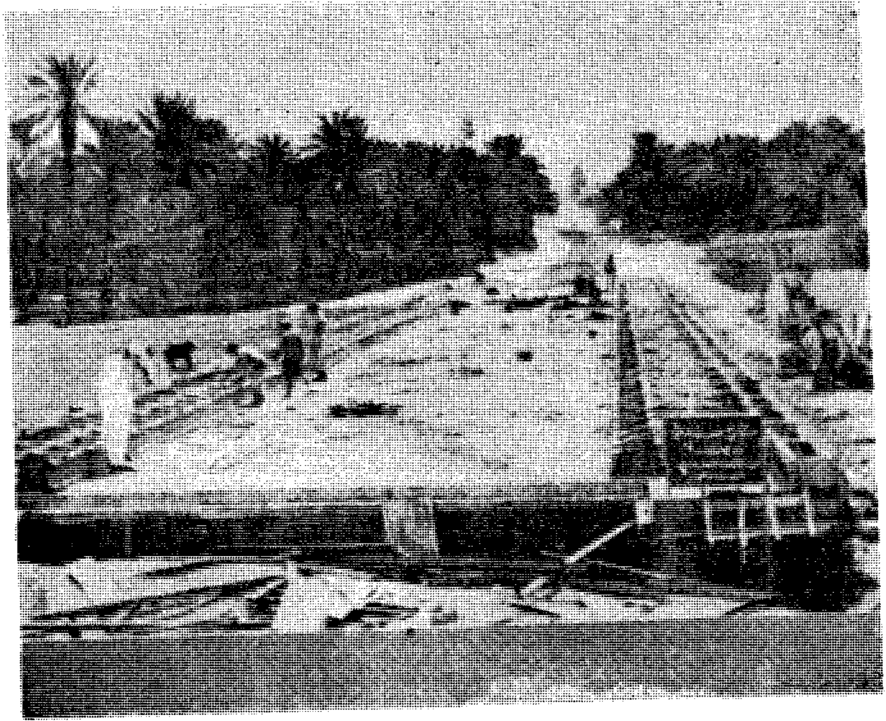
شاقتك من قتلة أطلالها بالشط والوتر إلى حاجر

وهو واد يأتي من الشمال الشرقي من مرتفعات بسيطة فوق مطار الرياض الحالي ، ثم يخترق مدينة الرياض فيسمى « البطحاء » وقد جعل هناك في أخدود يحيط به سياجان يمر ماؤه بينهما ثم يستمر جنوباً مع ميل إلى الغرب حتى يجتمع بوادي حنيفة جنوب بلدةمنفوحة؛ واذا سال كثيراً ما يعرقل المرور في الرياض ، وشارع البطحاء اليوم يعتبر السوق التجارية للرياض ، وعليه معظم فنادق الدرجة الثانية •

٥ ـ وادي البعيجاء :

لم أر هذا الوادي ، وانما ذكره ابن خميس في المجاز حيث قال : والثالث ـ يقصد الأودية التي تصب في الحائر ـ وادي « البُعَيجاء » يصب بعد وادي لحاء مباشرة عن يمين المنحدر مع الوادي وهو يقبل من الجنوب الغربي ، وأعلاه محاذ « لنساح » ويشترك سيله مع سيل

وادي الأوسط ، قرب مخاليف نساح (؟)[1].



جسر وادي حنيفة

ولاجتماع هذه الأودية في الحائر « حائر سُبَيع » اختزنت أرضه مياهاً جوفية جيدة فغزرت بئاره وكثر زرعه ، ثم مد منه الماء لسقي مدينة الرياض . ويقع الحائر جنوب غربي الرياض على قرابة (٢٢) كيلاً . بلد عامر سكانه قبيلة سبيع المار ذكرها .

(١) المجاز : ٣٠/٣١ .

جبال الرياض

جبال الرياض أو جبال العارض : سلسلتان تمتد أحداهما غرب الرياض آتية من الجنوب البعيد ، وهذه تسمى « طُـوَيْق » أو عارض اليمامة،ثم يفصلهما وادي لحاء إلى سلسلتين أيضاً احداهما تمتد إلى الشمال بين وادي حنيفة ووادي لحاء ، فتكون مياهها الشرقية في وادى حنيفة، ولذا تكثر روافده الكبيرة من هذه السلسلة كنمار ووادي لبن ووادي سُدَير ووادي العمارية ، وغيرها كثير[1] . وتكون مياهها الغربية في وادي لحاء وأما السلسلة الثانية من عارض اليمامة فهي التي يفصلها وادى لحاء يمينه إلى الجنوب الغربي ، وهذه تأخذ شمالاً غربياً إلى قرب مراة ثم تنقطع .

أما السلسلة الثانية من جبال الرياض فهي « العرمة » : سلسلة جبلية تمتد من شمال شرقي الرياض فتمر شرقه إلى قرب الخرج ،مياهها الغربية في وادي السَّلَي ــ معظمها ــ والشرقية تتجه صوب الدهناء ، أودية فيها رماح والرمحية بئران ، ويفصل هذه السلسلة شرق الرياض الطريق الى الاحساء في مضعف منها ، ثم تبدأ بعده في الجنوب جبال « هيت » التي تراها يسارك وأنت منجه إلى مدينة الخرج .

وهناك أجبل بل آكام صغيرة منتشرة في وحول مدينة الرياض منها:
جبل أبي مخروق : أكمة حمراء على الضفة الشرقية لوادي الوتر في صدره مخرومة ترى من جانب منها من في الجانب الآخر ، ويقول الجاسر انها كانت تدعى « الخربة » بضم الخاء المعجمة[2] .

---

(١) انظر : المجاز : ٢٨ وما بعدها .
(٢) تاريخ مدينة الرياض : ١٧ .

ثم جبل المرقب : على الضفة الشرقية أيضاً من وادي الوتر إذا اقترب من العـَود ، على طرف شارع طارق بن زياد ، وسمي به الحي الذي يحيط به « حارة المرقب » .

اليمامة

اقليم واسع من جزيرة العرب أكثر من ذكره الشعراء والمؤرخون والرحالون ، فنعتوه نعوتاً ووصفوه أوصافاً تدل على كرمه وخصبه ، وقد نقل حمد الجاسر في تأريخ مدينة الرياض[1] إن اليمامة كانت أخصب البلاد ــ ربما يقصد الجزيرة ــ وأكثرها مياهاً وزرعاً ونخلاً .

غير أن ما نقله الجاسر عن صاحب بلاد العرب بأن والي اليمامة كان يجبي وادي القرى غرب المدينة ، ومدينة الجار على ساحل البحر الأحمر[2] ، غريب حقاً ولا بد أنه من وهم المؤرخين أوتصحيف الأسماء خاصة اذا عرفنا أن في نجد وادياً يسمى وادي القرى جاء ذكره قرب جلاجل ، والا ماذا يكون مصير المدينة اذا وصلت سلطة صاحب اليمامة ما وراؤها من جميع الجهات ؟ أتكون هي تابعة لليمامة ؟ هذا ما لم يذكره مؤرخ ، أم تكون كجزيرة داخل حدود ولاية اليمامة ؟ وهذا لا يتفق والمنطق .

واقليم اليمامة كان يشمل ما يعرف اليوم بأقاليم : العارض[3] وسدير والمحمل والوشم والشعيب والخرج والأفلاج والفرع .

وبتحديد أدق فان اقليم اليمامة كان يشمل كل الأرض المحاطة بالرمل من الدهناء شرقاً ، إلى نفود الدحي غرباً ، المارة بين شقراء

---

(١)و(٢) تأريخ مدينة الرياض : ٩ .
(٣) العارض : الاقليم الذي تتوسطه مدينة الرياض .

والدوادمي فاصلة اقليم الوشم عن السر ، ومن الربع الخالي جنوباً إلى التقاء نفود الزلفي والدهناء في الشمال •وعلى هذا يمكن تقسيم مانسميه اليوم بالمنطقة الوسطى من المملكة العربية السعودية إلى ثلاثة أقاليم فقط : اليمامة ، والقصيم ، ونجد •

ومعروف أن الأقدمين ماكانوا يطلقون اسم نجد على البلادالواسعة التي تشمل اليمامة الا من سبيل المجاز ، وفي تحديدات الأولين ـ على اختلافها ـ نصاً قوياً أن نجداً من وادي الرمة وجنوب • وسألت شيخاً مرة ونحن بالصياهد هل هذه من نجد ؟ قال لا • قلت : وأين نجد في نظركم ؟ قال : ما وراء نفود السر • وهو قول فيه كثير من الصواب يتوارثونه حتى الآن[1] •

ومن مدن اليمامة اليوم : الخرج: على قرابة مائة كيل جنوب شرقي الرياض يصلها طريق معبد ، وهي من أخصب أرض اليمامة وأكثرها مياهاً •

وشقراء : وسيأتي ذكرها مستقبلاً على الطريق •

والمجمعة والزلفي وحريملاء والدرعية، وكلها سبق الحديث عنها•

وتجدر الاشارة أن قرية هي اليوم قرب مدينة الخرج تسمى « اليمامة » •

وظلت حجر « الرياض اليوم » قصبة اليمامة منذ أن عرف اسم اليمامة ، ما عدا الفترة التي كانت الدرعية فيها عاصمة الدولة السعودية، وقد تقدم الحديث عنها •

---

(١) وهذا ليس بحثاً تأريخياً ، ولكنه قول موجز أملته هذه الرحلة ، والرحلة عجلة كالسير فيها وليست دائماً معنية باستقصاء النصوص •

٤

من الرياض إلى مكة

السفر إلى الحجاز مما تشتاق إليه النفس وتطرب ، ومما يجد فيه الخيال مسرحاً ومحلقاً علوياً •

لقد ذكرتني عن حباب حمامـة بعسفان ، أهلي فالفؤاد حزين
فويحك كم ذكتني اليوم أهلنـا لعـل حِمامي في الحجاز يكون

وما أن فرغت من صلاة عصر يوم الثلاثاء ١٣٩٦/٢/٥ هـ حتى اتخذت طريقي مستأنفاً هذه الرحلة إلى الحجاز ، وكأني أقول :

تمتـع من شميم عرار نجـد فمـا بعـد العشية من عـرار

وفي آخر شارع البطحاء مما يلي الطريق توقفت عند مصلح عجلات فغيرت زيت سيارتي •

رفقة على غير موعد

وهنا تقدم إليّ شاب في العقد الثالث من العمر فحياني تحيـة الصديق المحب ، وطافت صورته في الذاكرة ، ان الملامح ليست غريبة علي ولكني لم أستطع تجميع الصورة واستعادتها ، وبدون تطويل ، فقد ذكرني هذا الشاب نفسه فاذا هو من أرحامي سُبَيع ، فدعاني إلى داره وألح في الدعوة ، وكرم سبيع يضرب به المثل فهم أهل المثلوثة التي قل أن يجمعها مضيف في البادية لضيوفه : اللبن ، والتمر ، واللحم، على التوالي •

ورجوته بأن يعتبر عذري ضيفته ، وأفهمته بأني في حاجة ملحة إلى مواصلة السفر • وعندئذ قال : إذاً عندي نفرين ـ شخصان ـ من أرحامنا قحطان تأخذهما معك إلى الطائف • فاذاً أنا أمام رفقة من أرحام أرحامي والعذر منهم غير مقبول، وفي الواقع ـ وان كان البعض يعتبر هذا عيباً ـ فاني لا أميل إلى رفقة في السفر كثيراً ، فرفيق السفر يعجلك حين تريد التأني ، ويؤخرك حين تريد العجلة ، وان أردت المبيت أراد السُّرَى ، وان أردت السرى أراد المبيت •

غير أن تقاليدنا فرضت علي الترحيب بضيوف الصديق فذهبنا إلى بيته ، ودخل ، وبعد وقت خرج شيخ كث اللحية أبيضها ، أبيض الوجه والثياب ، عليه سيماء الصلاح ، وتدل هيئته أنه ليس من البادية ، ثم لحقته امرأة تبدو في العقد الرابع،وتبرز عيناها من فتحتي البرقع الذي هو ـ عادة ـ لباس معظم بادية الجزيرة اليوم • فركبا ، وسرنا على طريق الحجاز وعبرنا جسر وادي حنيفةصـعدين حزوماً ذات قرارة واسعة،وهي الطرف الجنوبي لجبل طويق الشرقي •

وعلى «٣٠» كيلاً من الرياض انحدرنا في منحدر متعرج حاد يسمى « طلعة ديراب » •

دِيْراب

ودعاه ابن خميس « أديراب » مدخلاً عليه الألف • مزارع يهبط إليها الطريق من تلك العقبة المار ذكرها ، وهي في بطن وادي لحاء ، وفي مضيق منه قبل مواصلة رحلته الطويلة إلى حائر سبيع ، وتقع أول هذه المزارع على « ٣٥ » كيلاً من الرياض • وكان الطريق قبل العقبة « طلعة ديراب » يسير جنوباً غربياً ثم عدل الآن إلى الشمال الغربي

بامتداد وادي لحاء ، وبين سلسلتي طويق الشرقية والغربية ، ترى نعوفها الشقر التي يزيدها جمالاً انعكاس شمس الأصيل ، تراهـا يمينك وشمالك كما تشاهد فوهات الأودية المنقضة منها في وادي لحاء.

الجوازى

كان رفيق الرحلة يدعى أباراشد، وعرفت فيما بعد أنه علي بن راشد، ولكن الذي لم أعرفه وما كان يهمني هو اسم رفيقتنا ، هـذه المرأة المسترجلة كجل نساء الجنوب ، فهن يتحدثن مع الرجال بنفس الطلاقة التي يتصف رجالهن بها ، ويسافرن مع الركب ويركبن المطية مرجاً[1] ويأكلن ـ اذا لزم الأمر ـ مـع بني قومهن . وبينما كانت السيارة تسابق الريح بين ديراب وضرماء أحسست بلفحات الهواء البارد، فقلت : « صكي الزجاج يا أخت » قالت ـ وهي ترفع الزجاج ـ : اسمي جازى « جوزاء » وينادونني « الجازي » .

فأردت أن أشد في عنان هذه المرأة المسترجلة ـ ويسمونهـا رِجَاليّة ـ فقلت : ولكن الفرق كبير بينك وبين الجوازي !

قالت : إيه الجوازي ما تلبس ثياب ! فسكت . فقالت « وش بك سكت »؟!

قلت : خشيت أن تثبتي لي إنك من الجوازي !

وما أسرع بديهة البادية وأشد ذكاءهم ، فقد ضحكا معاً أبو راشد والجازي ، فأردفت : لا ، خل قلبك على كراسيه ، كله ولا هذا!!

---

(١) المرج : لا وتر عليها .

الغُطْغُط :

بتكرار الغين المعجمة المضمومة ، والطاء المهملة ، وفتح غينها ابن خميس في كتاب المجاز ، وذلك خلاف المسموع :

بلدة كانت في أول العهد السعودي هجرة للحمدة شيوخ برقا من عتيبة ، وكان أول ادراكنا تعني هذه الكلمة ــ في الحجاز ــ أولئك الرجال الذين يعتمرون الغتر الحمر ويلفون حول الرأس عصابة بيضاء، فكل هؤلاء غُطْغُط ! • هذه البلدة تركنا طريقها يفرق يساراً قبل وصولنا ضرماء أو « ضرمه » كما ينطقها أهلها ، وتقع على النعوف الشمالية لجبل طويق الغربي ، وأهلها شديدوا التمسك بالدين ، وهي ميزة لا زالت ــ لله الحمد ــ في جل أهل الجزيرة غير أنها في نجد آكد وأظهر •

ويلي الغطغط يسرة أيضاً بلدة المزاحمية ، وأعتقد أنها منسوبة إلى المزاحمة : بطن كبير من الروقة من عتيبة •

ضرما

وصلنا ضرما على « ٨٨ » كيلاً من الرياض بعد ساعة ، ذلك أن أبا راشد كان يذكرني دائماً « أن العجلة من الشيطان ، والراضة من الرحمن » و « ما طائرات إلا وهنّ وقوع » •

وضرما هذه مدينة تخلط بين القديم والحديث كسائر مدن نجد، زراعية ذات غابات من النخيل ، فيها أمارة ومحكمة ومدارس للبنين والبنات ، ومحطة لبيع وقود السيارات •

ويقول ابن خميس : كانت تعرف باسم قرماء ، وكانت لبني ظالم بطن من بني نمير ، وهم : شهاب ، ومعاوية ، وأوس • وهذا عن معجم

البلدان مادة « قرما »[1] ولا يرى ياقوت وجها لمدة « قرما » وانما مدها جرير ضرورة في هجائه لبني نمير فقال :

سيبلـغ حائطي قَرَماء عنـي قواف لا أريد بهـا عتابـا

وقول المليك بن السلكة :[2]

تروح صحبتي أصُـلاً محـار ، على قَرَماء عالية شَوَاه

وقول الأعشى :

ويوم الخرج من قَرَماء هاجت صباك حمامة تدعو حمامـا

فمد الشعراء الثلاثة « قرماء » واذا أمعنت فيه وجدت المد ــ ان لم يكن أصلاً ــ فهو ضرورة . أما ذكرها نثراً فجاء كله بالقصر .

مراة

خرجنا أو قل اجتزنا منطقة ضرما ، والشمس ترتفع عن النجاد قليلاً ، وليست هذه أول مرة أسلك هذا الطريق براً فقد سافرت فيه بسيارة جيب سنة ١٣٨٤ هـ من مكة الى الرياض ، وهو انذاك جلـه ترابي لم يعبد بعد ، ثم سنة ١٣٨٥ هـ وكان على حالته السابقة ، ثـم سنة ١٣٨٧ هـ وكان قد عبد كله ، غير أنني أردت أن أستعين بأبي راشد بعد أن عرفت من حديثه والجازي أنهم ربعوا الوشم وسوقوا شقراء

(١) انظر : المجاز لابن خميس .

(٢) لم يترجم له في معجم الادباء ، ولا في البيان والتبيين ، ولم يذكر في فهرس أيام العرب في الجاهلية . ويقول في المنجد : السليك بن السلكة التميمي : أحد صعاليك العرب العدائين في الجاهلية ، كان أول الناس بالأرض وأعلمهم بمسالكها وأشدهم عدواً . ولم يزد على ذلك .

ومراة سنة « موت الحيران » فقلت إذا مررنا بمعالم ظاهرة فاذكر لي ما تعرفه يا أبا راشد ، ولكن لا تذكر ما لا تعرفه ! فقال : « أفا ، أكذب عليك » ؟

وبعد ضرما مررنا بمزارع سمحان ذات السهول الواسعة،وأعتقد أنها من «قرقرى» القديمة.وعلى «١٧٦»كيلاً من الرياض وصلنا مراة ، وكانت تعرف باسم مرأة : بلدة في واد يشرف عليها من الشمال ضليع يسمى « الكميت » لونه أحمر بسمرة ، والبلدة أكبر من ضرما وكان الأذان يتعالى من منائرها التي حسبتها ثلاث أو أربع ، ترجلنا فأدينا الصلاة أنا وأبو راشد في مسجد قرب محطة الوقود مبني بالاسمنت المسلح ، وبعد الصلاة خرجت فتوغلت قليلاً في البلد ، كانت تخلط خلطاً غير منسق بل كثير النشاز بين القديم والحديث ، غير أن القديم آيل إلى زوال ، وتلك البيوت اللبن تنهال عليها المعاول بدون رحمة ، وفي البلدة مقاه يستريح فيها المسافرون تقدم الطعام إلى جانب الشاي والقهوة ، وفي المدينة أمارة ومحكمة ومدارس، وشرطة منها قسم مرور، وسألت رجلاً حسبته موظفاً عن عدد السكان . فقال : ثلاثين ألف . وأعتقد أن العدد مبالغ فيه .

ومَرْأة ذات ذكر في كتب الأقدمين ؛ ويقول ياقوت : بلفظ المرأة من النساء : قرية بني امرىء القيس بن زيد مناة بن تميم باليمامة سميت بشطر اسم امرىء القيس ، بينها وبين ذات غسل مرحلة على طريق النباج .

ولم تدخل في صلح خالد بعد قتل مسيلمة الكذاب فسبى أهلها ، وسكنها حينئذ بنو امرىء القيس بن زيد مناة بن تميم فعمروا ما والاها

حتى غلبوا عليها ، وكان ذو الرمة الشاعر[1] نزل عليها فلم يدخلوا رحله ولم يقروه فذمهم ومدح بهنس صاحب ذات غسل وهو مرئي أيضاً ، قال ذو الرمة :

ولما وردنا مـرأة اللؤم غلقت   دساكـر لم ترفع لخـير ظلالها
وقد سميت باسم امرئ القيس قرية   كـرام غوانيهـا لئـام رجالهـا

ويورد ابن خميس أيضاً[2] :

يعـد الناسبون إلى تميـم   بيوت المجـد أربعـة كبارا
يعـدون الرباب وآل سعـد   وعمراً ثـم حنظلـة الخيارا
ويسقط بينهـا المرئي لغـواً   كما ألغيت في الديـة الحوار

وقد أقذع ذو الرمة في هجاء بني أمرئ القيس، ومن أشنع مايذم به العربي إلى يومنا هذا اهمال الضيف بخلاً أو احتقاراً • وذات غسل الواردة في النص آنفاً تعرف اليوم بغسلة ، وهي ناحيـة من الطريق يميناً بعد أن تتجاوز مراة بمسافة ليست طويلة •

نماذج من البشر :

توقفنا للتزود بالوقود ، وبينما كان عامل المحطة يعمل ذلك تقدم إلي شاب أخذ يدخن بشراهة وينفخ دخان سيجارته بصوت مسموع

---

(١) هو غيلان بن عقبة : شاعر بدوي مفلق كان يتردد على البصرة والكوفة وحجر اليمامة ، وكان يتعشق ميّة والخرقاء ، توفي سنة ٧٣٥ م ، عاصر الفرزدق وجريراً ، له ديوان مطبوع ، قيل أنه يحوي ثلثي لغة العرب، قال الجاحظ ، قال أبو عمرو بن العلاء : فتح الشعر بامرئ القيس وختم بذي الرمة • ومرض ذو الرمة • فلما حضرته الوفاة قال : أين تريدون أن تدفنوني ؟ قالوا : وأين ندفنك الا في بطن من بطون الأرض ! قال : إن مثلي لا يدفن في بطون الوهاد • فأوصى أن يدفن في الفرنداذ رمل بالدهناء ، ويقال الفرنداذان • (معجم البلدان ، والمنجد ، والبيان والتبيين) •

(٢) المجاز : ٥٠ •

من الباب الذي أتكىء عليه ، وهو يقول : خذوني معكم إلى الدوادمي وما أسرع ما امتلأت السيارة بعجاج ذلك الدخان ، وأنا لا أكره شيئاً كرهي لهذا الخبيث الضار بكل جارحة في الانسان ، وبينما كان هذا الشاب يكلمني كان يركز نظره وبوقاحة متناهية إلى الخلف ، وكان لحسن الحظ سرعان ما ناولني العامل مفتاح الخزان فحركت السيارة دون أن أكلمه .

وقال أبو راشد : الله لا يجزاه خير ، دخن علينا !

قالت جوزاء : « أنت وراك ما صكيت القزاز في وجه هالخبل اللي ملأ السيارة دخان »؟[1]

قلت : ان قلة أدب الآخرين ليست حجة لنقل نحن الأدب .

قال أبو راشد : لولا اختلاف العقول ما كان في الناس صاحي ومجنون !

ثرمداء

ثرمداء : بفتح الثاء وسكون الراء ، وفتح ما بعده ممدود . بلدة أصغر من سابقتها ، في واد ينحدر صوب الشرق إلى سهل قرقرى ، وصلناها من بعد ستة أكيال أو زيادة طفيفة ، ليس بها ما يلفت النظر ، ولم تتقدم كثيراً باستثناء مباني حديثة البناء مما يدل على أنها مقبلة على تغيير معالمها ككل مدن الجزيرة العربية اليوم ، غير أن للمدينة مجداً غابراً ، وذلك ما رواه الشيخ عبد الله بن خميس في كتابه « المجاز بين اليمامة والحجاز » فقال : وفي أوائل القرن الثاني عشر كان أمراء هذه القرية ــ يعني أثيثية ــ قوماً من تميم يدعون العزاعيز ، وكانت القرية

(١) وراك : في لهجة أهل نجد تعني : لم ؟ أو علامك ؟

مستضعفة أمام قوة ونفوذ ثرمداء وأمرائها العناقر ، وكانت « أثيثية » تؤدي الأتاوة لثرمداء بلدة العنقري ، واذا نحر أهل أثيثية جزوراً فان أطايب لحمها حق مستحق للعنقري بدون مقابل ، يبعث مملوكه فيحمله إلى ثرمداء [1].

والعناقر هؤلاء من بطون تميم ومن الذروة فيهم .

وفي معجم البلدان : قرية بالوشم من أرض اليمامة . وقال نصر : موضع من ديار بني نمير أو بني ظالم من الوشم بناحية اليمامة ، وهو خير موضع بالوشم ، ويروى بكسر الثاء ؛ وقال السكوني : ثرمداء من أرض اليمامة لبني امرىء القيس بن تميم ؛ قال جرير :

انظر خليلي بأعلى ثَرْمداء ضحىً
والعيس جائلة ، أعراضها جُنُفُ
إن الزيارة لا ترجى ، ودونهم
جهم المحيا وفي أشباله غَضَفُ

فاذا نحن أمام بلدة تجتر أمجادها ، كانت أم الوشم فأصبحت مجرد مساكن للذين لم يستطيعوا النزوح إلى معادن الثروة ، والحق أن أهل ثرمداء الذين استوطنوا الرياض وجدة ومكة يكادون ينسون ثرمداء ، ومنهم العناقر أنفسهم ، ولا يختلف عاقلان في أن لهذه المدن حقاً على أبنائها الاصلاء الذين هبطت عليهم الثروة هناك حتى جعلتهم يعتبرون مساقط رؤوسهم مجرد ريف من أرياف الجزيرة ، وحتى الانتساب إليه أصبح منهم من يأنف منه !

---

(١) المجاز ص ٥٤ ، ٥٥ . صورة من صور العصور الغابرة تظهر في كل زمان ومكان ،وهي ظاهرة استعباد الانسان أخاه الانسان ، ومنذ أن عمر الله هذه الأرض ببني آدم كان لا بد من خضوع الضعيف للقوي بصورة أو بأخرى، أو خضوع الأقلية للأكثرية ، وبدون ذلك ــ رغم قسوته في النفوس ــ تصبح الحياة فوضى بلا نظام ولا ضابط .

لا يصلح القوم فوضى لاسراة لهم
ولا سراة اذا جهالهم سادوا

أُثَيْثِيَة

أثيثية : بتكرار المثلثة ، والمثناة تحت ، وأوله ألف ، وآخره هاء •

قال في معجم البلدان : أثيفية : بضم أوله وفتح ثانيه وياء ساكنة، تصغير أثفية القدر : قرية لبني كليب بـن يربوع بالوشم من أرض اليمامة ، وأكثرها لولد جرير الخطفي الشاعر[1] ؛ وقال محمد بـن ادريس بن أبي حفصة : أثيفية قرية وأكيمات ، وانما شبهت بأثافي القدر لأنها ثلاث أكيمات وبها كان جرير وبها له مال،وبهامنزل عمارةبن عَقِيل ابن بلال بن جرير ، فقال عمارة في بني نمير :

إن تحضروا ذات الأثافي ، فإنكم   بها أحد الأيام عظم المصائب

ولم أر وصفاً أصدق وأكثر التصاقاً من وصف أثيفية هذه ، فانها تقع في واد يتسع قليلاً بين ثلاث أكمات كأنها أثافي القدر ، أي بلغة الهندسة تكون رؤوس مثلث • ويظهر أن الفاء فيها قد حرف إلى الثاء لتقادم العهد • وقد تقدم في « ثرمداء » ان أثيفية هذه كانت تتبعها ، أما اليوم فهي تابعة لشقراء أم الوشم •

ويذكر ابن خميس أن أثيفية ثارت ضد ثرمداء وقتل أهلها رسول العنقري ، فثارت الحرب بين القريتين فانتصرت أثيفية •

---

(١) هو جرير بن عطية بن الخطفي بن المراغة أبو حزرة • من بني كليب من تميم ،كانأ حد الشعراء الثلاثة المعروفين بالمثلث الأموي : جرير والفرزدق والأخطل • نسب الأقدمون إليه افضليات في الغزل والهجاء والمدح• ديوانه مطبوع • كانت له خصومات مع معاصريه الأخطل والفرزدق ، واشتهر هو والفرزدق بالنقائض المتبادلة بينهما •

(٢) انظر المنهل س ١٣٩٢ هـ ص ٥٥٤ •

وتبعد أثيفية عشرة أكيال عن ثرمداء شمالاً ، وعشرة عن شقراء جنوباً • وعلى « ١٩٢ » كيلاً شمال غربي الرياض •

وكنا وصلناها والرؤيا حسنة فشاهدنا معالمها ، وحثنى آبو راشد على مواصلة السير لنصل شقراء « بالصدف » •

شَقْرَاء

تحركنا من أثيفية ولم يطل بنا السير حتى هبطنا إلى شقراء من مرتفع نسبي من جهة الجنوب وتقع شقراء ـ كسائر مدن نجد ـ في واد متسع زراعي تحيط به المرتفعات من الجنوب والغرب والشمال ، وينفتح إلى مطلع الشمس حيث يكون تقريباً أعلى ذلك النهى أو الانبعاج الذي نطلق عليه ـ تجاوزاً وادي لحاء ـ بينما هو سهول وقيعة واسعة يبلغ طولها بين شقراء وحائر سبيع قرابة « ٢٥٠ » كيلاً ويأخذ معظم مياه الوشم بالاضافة إلى مياه الطويق ، وشقراء كسائر المدن النجدية ، ومعنى مدينة في نجد هو أن ترى غابة من النخيل الملتف في واد عميق تتخلل تلك الغابة بيوت طينية أخذت تتبدل بسرعة ، فهي في الأصل واحات زراعية أقام المزارعون بين مزارعهم مساكن تلائم بيئتهم ويصنعونها من مزارعهم بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، وبقدر تكاثرهم تكبر تلك القرى ، ولا تختلف شقراء عن هذا النمط ، غير أن موقعها في وسط البادية أعطاها ميزة أخرى ، فقد صارت سوقاً تباع فيه الإبل والغنم والسمن والشمال وكل ما يحتاجه الناس ، وكان سوق الصوغ فيها يعد ثالث سوق بعد مكة والمدينة في هذه الديار ، ثم جاءت النهضة الحديثة فساد الأمن واتصل العالم بعضه ببعض فسهل السفر وتركزت الثروة في أمهات المدن فهاجر الشقراويون جماعات إلى الرياض وجدة ومكة وغيرها ، وظل فيها الذين عاشوا شبابهم كله فيها،

ولم تتقدم الزراعة لعدم معرفة هؤلاء الذين اقتصرت مهمتهم على سقي النخيل ، ولكن الشقراويين لم ينسوا بلدتهم كلهم فساهموا إلى جانب ما تبذله الحكومة في تطوير شقراء . وتحرك العمران ولكن ليس بتخطيط بديع بل ان جله حل محل القديم بنفس تخطيطه ، وبلدية شقراء — على جهدها — قليل أثرها بالنسبة الى مجاراة هذه النهضة المباركة .

ومع أن الدولة تنفق على جميع المرافق بسخاء لم تشهده هذه الجزيرة قط ، فاننا — نحن المنفذين — لم نستوعب كل ذلك وننفذه ؛ وأم الوشم جميلة ولقيت من الدولة كل عناية ولكن موقعها محدود ، ولذا خطط لمدينة شقراء الحديثة في ظهرة في الجبهة الغربية الجنوبية فأخذت تظهر هناك الفلل والمباني الحديثة ، ودخلت زراعة شقراء تحسينات بطيئة رغم بذل الأموال والآلات بأيسر الطرق . ويقال إن شقراء هو اسم الهضبة المشرفة عليها من الجنوب ثم سميت المدينة بها. تبعد شقراء « ٢١٢ » كيلاً من الرياض .

ويقول ياقوت: والشقراء ناحية من عمل اليمامة بينها وبين النباج، والشقراء قرية لعدي ، وانما سميت الشقراء بأكمة فيها .

ولم يبين أي عدي هؤلاء ، فعدى في العرب قبائل شتى .

ليلة في شقراء :

ما أن أشرفنا على شقراء من الجنوب حتى ظهرت شوارعها تتلألأ بالأنوار، فتركنا المقهى الكبير الذي يتوقف عنده معظم المسافرين، يسارنا ثم هبطنا المدينة فتجولنا في شوارعها قليلاً ، وقد كان أثر العمران الحديث ظاهراً ، وكانت بعض الهدميات ترى هنا وهناك ؛

ثم عدنا إلى ذلك المقهى لنقضي ليلتنا فيه رغم معارضة رفيقيّ اللذين يحثانني على مواصلة السير ، وطلبنا من عامل المقهى أن يخرج لنا ثلاثة سرر بعيداً عن لمة الناس ، فقال : « بزيادة ستة ريالات » فوافقنا بدون جدال ، فأبرزها لنا فوضعت أحدها عن يسار السيارة ، والآخرين عن يمينها لأبي راشد وابنته .

وكان العشاء هنا مثله في سائر محطات الطريق أو طرق المملكة اليوم تلك الأكلة الشعبية «الكبسة» فأنت عليها تتغدى وعليها تتعشى.

أيهما المحرم ؟

تركت الرفيقين عند السيارة وذهبت الى داخل المقهى الذي كان خليطاً عجيباً من الشعوب العربية مسافرين ومقيمين ، وبين لغط القوم وصخبهم دخل شاب ظننته باديء ذي بدء فتاة ، كان شعر رأسه يغطي أذنيه ، وقد حفه من الامام فوق الحاجب ، كما يعرف قديماً عند جداتنا بالخِفَّة ، وهي قص مقدم شعر الرأس فوق الحواجب . وكان الشاب يرتدي بنطالاً ضيقاً يشد خصره إلى درجة الحقط[1]. وقميصاً ذا لون أحمر جذاب .

ودار حوار بين الحاضرين عن ماهية هذا الشاب فقال أحدهم : انه محرم لإحدى المدرسات هنا ! وكان عامل المقهى اليماني يمر ويسمع الكلام فقال : والله ياعمي هذا هو يشاله محرم ! عدت الى موضع مبيتنا وكان الجو بارداً والسحب تتكاثف منذرة بالمطر ، ورياح شباط تصفر، وقضينا ليلة ليلاء في مرتفع من ربى نجد ذات الرياح الوجاجة ، غير أن تعب السفر جعلني أستغرق في النوم حتى أيقظني صوت أبي راشد يهلّل ويسبح فنظرت الى الساعة فاذا هي الرابعة وقد بقي على موعد الأذان أزيد من ساعة ، وكان صوت جوزاء تحت اللحاف كأنه تعرض لذبذبات كهربائية ، ولو وضع فوقها كل ما نحمله من لحف لظلت

(١) الحقط : شدة حزم الشيء حتى يغيب الحزام في المحزوم .

تنتفض وتزمجر ! عندها شغلت سخانة السيارة وطلبت منها أن تدخل فيها وأغلقت عليها الزجاج بينما حملت لحافي وفراشي على كتفي ويممت داخل المقهى ولأياً وجدت سريراً ليس عليه أحد فنمت عليه ، وما أن تعالى نداء الحق من مأذن شقراء حتى نهضت عائداً إلى الرفيقين فأفرغت ما في الحافظة من ماء ساخن فتوضأنا به ، وعندما تحركنا كدنا نلوم أبا راشد على قيامه آخر الليل ! فقال : اسمع يا عاتق ! إن شاء الله انك وجه خير ولا يلحقك عرق من المنافقين ، إن كلمة لا إله إلا الله ، تصعد إلى السموات ، ولا يوجد عمل في الدنيا يعدلها ، والمنافق لا يستطيع أن يقولها عشر مرات ![1] .

بين شقراء والدوادمي

خرجت الطريق من شقراء باتجاه الغرب ، فالطريق ـ أساساً ـ لو كانت عدلة ما مرت بثرمداء وأثيثية وشقراء ، وكانت خرجت من مراة غرباً ، غير أنها عرج بها إلى شقراء شمالاً عدلاً ثم خرجت منها غرباً ، ولذا قالوا : « أعوج من طريق شقرا » أي أكثر اعوجاجاً .

ومن شقراء صعدنا مرتفعاً يشبه الحزم يسمى عند أهل نجد صفراء ، ذلك أن لونه أمغر يقرب من الصفار ، ثم هبطنا منها في أرض براح لا يحد النظر فيها ، ثم صعدنا نفود السر ، وهي نفود معترضة كانت السيارات تعاني منها الأمرين قبل تعبيد هذا الطريق ، ومنها هبطنا إلى أرض فيحاء هي أعالي وادي التسرير الذي يقول فيه أعرابي :

---

(١) هذه معلومات أبي راشد ، أما المنافق فكان له دور متقن في تقمص الاسلام وهو يخفي الكفر ، ولا شك أن المنافقين كانوا مستعدين لقول لا إله إلا الله مائة مرة ، ظاهراً .

وإذ يقولون :

مـا يشفيك ؟ قلت لهـم دخان رمث من التسرير يشفيني
مما يضم إلى غمران حاطبه من الجُنينة، جزلاً غير موزون

والتسرير اسم قديم لواد يأخذ جل ما بين الوشم والشُريف، وكان أسفله يعرف بالسر ، وهو لا زال معروفاً كما تقدم معنا ، ويعرف اليوم ما غرب الوشم وجنوب القصيم بأقليم السر وفيه إلى يميننا قرية البُرُود قرية الشيخ حمد الجاسر ، التي ولد بها وتلقى علومه الأولية • وبتجاوزنا نفود السر تركنا وراءنا اليمامة وشرعنا في نجد ، وهي كثيرة المرتفعات والأودية ، والمنطقة الواقعة بين الدوادمي وعفيف تشبه الحجاز •

ويأخذ التسرير مياه كل المنطقة الواقعة بين نفود السر شرقاً إلى السراة المارة قرب عفيف غرباً ، ومن أكبر تلك الأودية وادي الرشاء الذي يبدأ من عند البجادية فيشمل حتى يجتمع مع تلك الأودية في قاع الخرماء قرب القصيم ، ومن أشهر القرى الواقعة في هذا الحوض : عرجاء : شمال الدوادمي ، عنز : أراض استصلحت فجادت بالحبحب قرب القاع المذكور ، وخفّ : بلدة صغير لعتيبة يمين طريقنا هذا وغرب طريق القصيم • وبعد مهبطنا من النفود فرق يميناً طريق القصيم ، وهو غير ذلك الذي يمر بالزلفي والمجمعة •

الدوادمي

وعلى « ١٢٨ » كيلاً غرباً وصلنا بلدة الدوادمي ، وهي تختلف عن مدن اليمامة والقصيم من حيث العراقة والطراز ، فليس فيها قصور طينية قديمة الطراز ولا ما يدل على عراقة البلد ، ويظهر أنها ظلت محطة

للحجاج وموردا للبادية حتى جاء عصر الآلة وتيسرت أسباب التحضر فعمرت هذه المحطة ، ولها نظائر مثل البجادية وعفيف وظلم .

وتقع الدوادمي في فسيح من الأرض الطينية الصالحة للزراعة،وقد تقدمت زراعياً ، ولجودة عنبها شهرة ، وفيها سوق عامرة ومقاه كثيرة، ولها أمارة ومحكمة وشرطة ومدارس ، ويظهر أن بلديتها نشيطة ذلك أن شوارعها ظهرت نظيفة .

وبينما كنا عند محطة المحروقات كنا نرى سياجات البساتين باسقة مما يدل على وفرة الماء ومن الدوادمي يخرج إلى الشمال طريق إلى : مصدة ، وعرجاء : بلدتان .

البجادية

ثم خرجنا من الدوادمي غرباً فأخذنا في الأرض الجبلية التي تتخللها الأودية المتجهة شمالاً إلى وادي التسرير ، ثم فرق يسارنا طريق « الشعراء » وهي بلدة في تلك المنطقة الجبلية ، وهي على سفح جبل ثهلان من الشرق ، وثهلان يرى من الطريق ، وكذلك الريان والنير : جبلان .

وكلها لها ذكر مستفيض في الأدب العربي ، وقد أوفاها حقها الاستاذ ابن خميس ، وهذه الرحلة سجل مشاهدات وانطباعات ، ولو أردنا أن نأتي بكل ما نعلمه من نصوص وشواهد لبلغ هذا مجلدات ، ولا تخلص مشاكل الكتاب الكبير اليوم حيث يصبح عبئاً على مؤلفه ويتركه مخطوطاً لكثرة تكاليف الطبع وأزمة الورق والنقل ، وما شابه.
وعلى « ٦٥ » كيلاً من الدوادمي وصلنا البجادية : بتخفيف الجيم .
وكانت تعرف ببئر صقر ثم اتخذها سلطان بن بجاد الذي اشترك في موقعة تربة سنة ١٣٣٧ هـ هجرة فنسبت إليه ، وكنت مررت بهذه

الهجرة سنة (١٣٨٥ فما كانت شيئاً يذكر ، ولكنها الآن تقدمت وكثر عمرانها ، وتقع على الجادة بين الدوادمي وعفيف في صدر وادي الرشاء•

وبعد البجادية بـ « ٣٥ » كيلاً بلدة القاعية ، كانت أقدم من البجادية غير أن الأخيرة سبقتها •

عفيف

أخذنا نصعد في هذه المنطقة الجبلية التي لا يكاد شعراء العرب يتركون منها شيئاً إلا خلدوه في شعرهم فأشار أبو راشد إلى جبل يضرب الى الحمرة تبدو نعوفه وقننه من وراء الأجبل الأقل ارتفاعاً ، فقال : « ذيك جبلة » وسكن الباء ، والمعروف « جَبَلَة » بثلاث فتحات:من أشهر جبال شرف نجد وفيها للعرب أيام[1]•وتقع يمين الطريق بين البجادية وعفيف ، وبعد « ١٧٩ » كيلاً من الدوادمي وصلنا عفيف؛ وكان قد فرق قبلها بأربعين كيلاً طريق الجمانية إلى الجنوب • وعفيف بلدة كانت على بئر مورداً للبادية ومحطة في هذه الصحراء القاحلة ، وكانت تعرف ببئر عفيف ، تقع على السفوح الغربية لتلك السلسلة الجبلية الممتدة من الجنوب إلى الشمال ، والتي من أشهرها جبال : النير وثهلان وجبلة ، وروى لي شيخ معمّر انه أدرك عفيف هذه وليس بها شيء من العمار يذكر ثم تقدمت في العهد السعودي فصارت سوقاً تباع فيها الابل والأغنام وكل ما يحتاجه الناس ، وجعلها بعدها عن المدن الآهلة مجلبة لكل بضاعة ومقصداً لكل طالب حاجة •

وصلناها في نحو الثامنة صباحاً وكانت الحركة تدب فيها رويداً رويداً ،واتجهنا إلى مقهى يسار الطريق حصلنا بجانبه على غرفة كفتنا

---

(١) أيام العرب في الجاهلية ، ومعجمي ياقوت والبكري ، والمجاز •

جوزاء فيها بينما جلسنا أنا وأبو راشد قريباً منها في طرف المقهى ، وبعد افطار غير شهي رأيت أن أتجول في عفيف ، وعندما ذهبت إلى سوق البدو وكان النساء أكثر رواده ، ورأيت بعيني ظباء عفيف بعد أن كنت أسمع بهن من زملائي الروقة ، ورأيت فيهن الجمال الأخاذ مع الاحتشام وكمال اللباس ، وهن لا يضعن البراقع عن وجوههن ، وعلى رؤوسهن خمر سود يلزمها على تلك الرؤوس « مرسن » والمرسن : سلاسل وفيها دناديش تتدلى إلى الوراء ، ويشبه المرسن في وضعه عقال الرجال تماماً، أما الثياب فاللون الغالب الأحمر مع ضيق متناسق في كل الطول ، ويسمونه « المدرعة » أما الرجال فلباسهم لم تعد به فروق ظاهرة عن لباس مدن المملكة • وعند بائعات الجلود والغزل والشمال طلبت من عجوز هناك أن أصورها مقابل مبلغ يعدل قيمة كل ما تبيع ، فنظرت إلي نظرة وقالت : « أفا » ومعناها عندهم : يا عيباه أو اما تستحي ! ولمحت احدى الغيد آلة التصوير فسألتني عن كنهها ، فأخبرتها ، فقالت: يعني مثل اللي يصورون بها للتابعية ؟! قلت : نعم • ووجدتها مناسبة فعرضت عليها أن أصورها وأعطيها صورة ! فجفلت وقالت : لا• ومدت اللام للتغليظ •

مررت بمُولّد يبيع الحبال التي يسمونها « المقوط » واحدها مقط ، وكان حوله عزيل من الشابات يساومنه على حبال وغيرها ، فلاحظ وقوفي فقال : نعم ، ياعم ؟ قلت : انته من الأخوات اللاتي قبلي وأخبرك • وكأنه تضايق من وقوفي فقال : لا، أنت أجنبي ولازم نبديك• فسمت حبلاً صغيراً قال : المتر بريالين • قلت : ولكنه في الحجاز بنصف ريال ! قال : رح اشتر من الحجاز • وكأن أولئك النسوة اكتشفن جديداً في الأمر فلم أنصرف وعنده منهن واحدة ! فنظر إلي نظر المغضب •

كان أرخص ما في سوق الحيوان في عفيف الحمير ، فكان ثمن

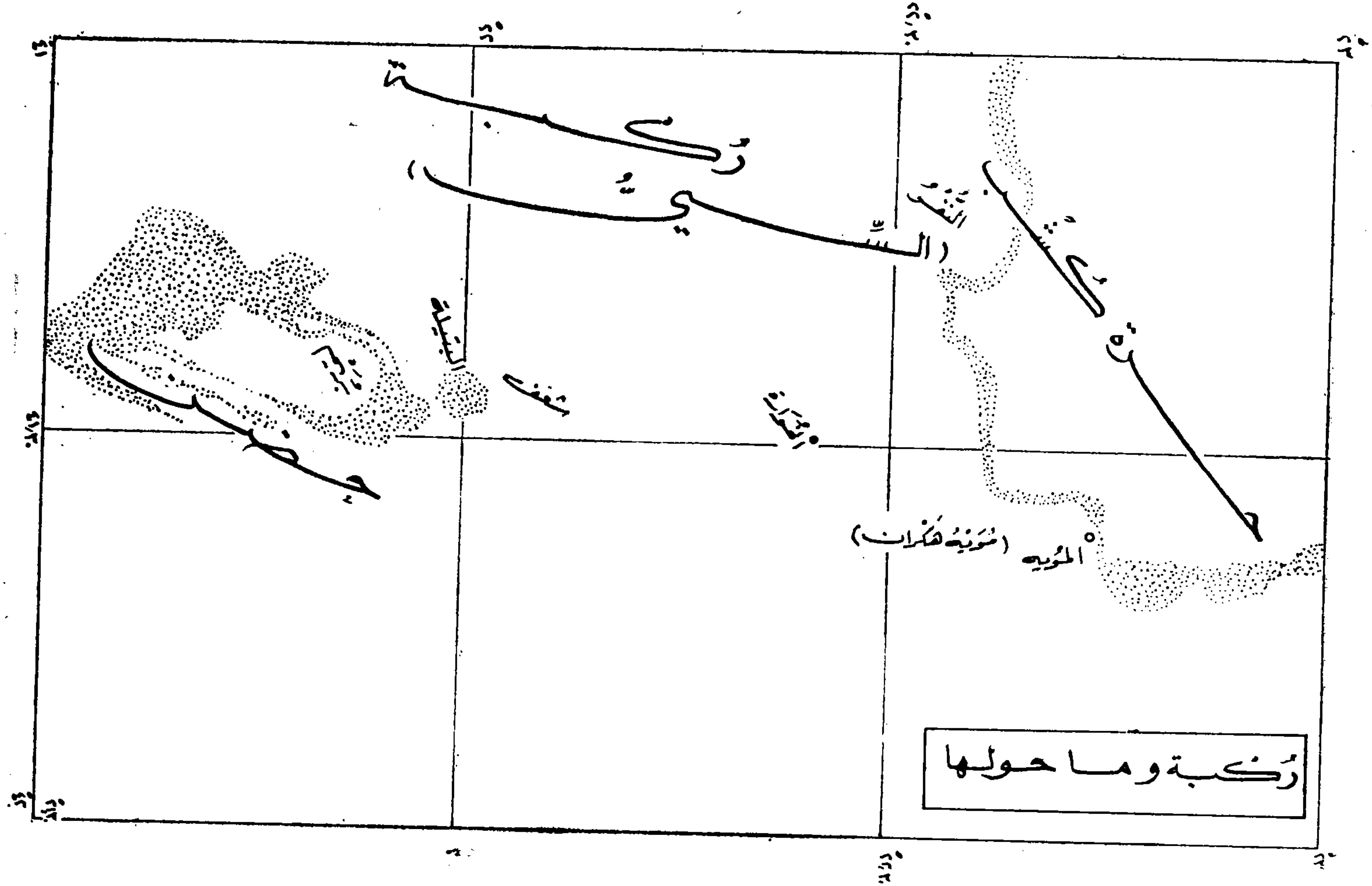
الواحد لا يزيد عن «١٥٠ ريالا» أي أقل من نصف ثمن الخروف، ذلك أن أهل البادية استخدموا في الرّيه سيارات الداتسون، فلم يعد للحمار سوق، فهو لا يؤكل ولا يحلب ولا وبر له ، ومن أمثالهم « مثل الحمار ما فيه غير ظهره » أي لا يستفاد منه الا في التحميل وخاصة حمل القرب ، وقد حلت محله ونيتات الداتسون الصغيرة متعددة الأغراض ، ولو لم يكن الجمل يؤكل لحمه للحق بالحمار لأنه هو الآخر لم تعد للناس حاجة في ظهره .

ظَلِم

خرجنا من عفيف ، وكان الطريق قديماً يأخذ ذات اليمين مغيب الشمس فيمر بمنهل الدفينة ثم بلدة المويه فعُشيرة فإلى مكة عن طريق السيل الكبير ونخلة اليمانية ، ولما عبد أخذ به من عفيف ذات اليسار جاعلاً سجا يساره ماراً بظلم ، فتأخرت تلك القرى التي جنب عنها ، بل انتقل جل سكان المويه الى المحازة كما سيتبع ، والقرى التي قامت أساساً كمحطات للمسافرين ليست لها حياة بدونهم ، فلا يكاد يهجرها الطريق حتى يهجرها أنيسها وعامرها فتخرب وتندثر، فقديماً اندثرت كل من ودّان والسيالة والجحفة ــ بين مكة والمدينة ــ عندما هجرها طريق الحاج.. وبينما كنا خارجين من عفيف كان يسارنا جبل أسمر ململوم يسمى « المردمة » على صيغة مفعلة . هذا الجبل لا تذكره أهل هذه الديار حتى يقول لك السامع أو الحاضر : « على المردمة خيال ، وأهل الذود يطرونه » في القاء يشبه الشعر ، وله أسطورة ليست واردة هنا وبعد مسافة ليست قصيرة فرق يساراً طريق ترابي إلى سجا ، وعرفت من أبي راشد انها ليست بعيداً من هنا ، وهي عد مورود ، ومن أمثالهم :«يغني الله عن سجا وماه » ذلك انها بئر طلوب كثيرة الورود لوجودها في أرض قاحلة .

وبعد « ١٥٠ » كيلاً من عفيف وصلنا ظلم • وهي بلدة قامت على معدن كان يستخرج هناك ، وتقع في مفازة من هذا السهل الواسع الذي يبدأ من عفيف شمالاً شرقياً إلى سفوح حضن الغربية ، أي مسافة تقرب من « ٤٠٠ » كيل في ما لا يقل عن « ٢٠٠ » وهذه تساوي أقليماً كبيراً في مكان غير هذا ، ويغلب على هذا السهل اسم ركبه في شماله الغربي من سفوح حرة كشب التي نراها بعيداً ولا ترى اذا لم يكن الجو صافياً إلى عشيرة غرباً إلى قرب المحازة جنوباً ، ثم يبدأ السي حيث يمتد شمال وغرب حضن ، ولا يعرف اليوم بهذا الاسم •

وليس في ظلم ماء ومقترح أن يمد لها الماء من الخرمة الواقعة جنوبها • وجو ظلم بارد شتاء حار شديد الحرارة صيفاً ، لوجودها في صحراء جافة مفتوحة •



ركبة وما حولها
حرة كشب
النقع
(السيّ)
ركبة
المحارة
شغف
البتيلة
برثم
حضن
المويه
(مويه هكران)
٢٣
٢٢،٣٠
٢٢
٤١
٤١،٣٠
٤٢

المويه الجديد

المويه ــ تصغير ماء ــ هو ذلك البلد أو القرية التي أشرنا إليها آنفاً ، ولما جنب الطريق انتقل بعض أهل المويه إلى حزم كـان يسمى « المحازة » يقابل المويه من الجنوب في صحراء مكشوفة كظلم .

خرجنا من ظلم ضحاء في تلك الصحراء الموحشة التي بدت قليلة النزل ، وطاف بالخاطر خيال ابتعد حتى استحضر صورة لعصور قديمة لا يكاد الرائي يحقق شكلها ، عهود ازدهار العربية في هذه الجزيرة عندما كان البدوي هنا يتكلم الفصحى بطلاقة ويعرب ويمنع عـلى السليقة ، وكأني باظعان لبيد بن ربيعة[1] تحدى متجهة شمالاً ، وهو يلتفت خلفه ويقول :

بكتنا دارنا لمـا ارتحلنـا وحيتنا سفـيرة والغيـام

ولكن أبا راشد قطع هذه الخواطر بأن طلب مني المرور على أبيات شعر كانت يمين الطريق بقصد التقهوي عندهم ، فعارضناه أنا وجوزاء، قلنا له : إن القهوة لا بد تكون موجودة في المويه ، وعلى مضض نزل عند رغبتنا . لم تكن هناك أعلام تظهر في هذه الصحراء ، وهنا لمحنا عن يسار الطريق أكمتان احداهما سوداء والثانية شقراء،قال أبو راشد: هما شعفان ، وأحدهما شعف، وعن يميننا كانت أكمة أو سلسلة أكيمات

---

(١) هو لبيد بن ربيعة الجعفري العامري ، شاعر جاهلي أدرك الاسلام فأسلم وحسن اسلامه ، أحد أصحاب المعلقات مطلع معلقته :

عفت الديار محلها فمقامهـا بمنى تأبد غولها فرجامها

ولما عمر المسلمون الكوفة هاجر لبيد اليها . وسفيرة والغيام الواردتين في شعره هما : جبلان قرب رنية شرق الطائف . ديوانه مطبوع ، وله شعر في الزهد .

تسمى « الأكموم » وينطقونها الكموم • وبعد قليل بدا « هكران » شمالاً بعيداً ، وهو أبرق تقع بقربه بلدة المويه • وعلى بعد « ٤٥ » كيلاً من ظلم وصلنا المويه الجديد[1] •

كان بلداً قام على مقاه ومحطات الوقود التي انتقلت من المويه ، ثم أخذ أهل المويه يهجرونه تدريجياً حتى غدا المويه الجديد « المحازة » بلداً أعمر من سابقه ، وصار أهله يطالبون الدولة بالماء والمدارس وجميع المرافق ، ولا زالت الامارة في المويه القديم • وطلبنا من المقهوي أن يسعفنا بدلة لأبي راشد ففعل •

يبعد المويه الجديد « ١٩٦ » كيلاً من الطائف ، و «٢٠٤ » أكيال من عفيف ، أي قريباً من منتصف المسافة بينهما •

رضوان

خرجنا من المويه فصلينا الظهر قصراً ، وكان أكبر ما نرى من أعلام هنا هي حرة كشب شمالاً تسد الأفق ، وهي حرة تمتد من سهل ركبة جنوباً إلى قرب المهد شمالاً ، تسيل مياهها الشرقية إلى نجد والغربية إلى عقيق عشيرة ، ومن أوديتها الجنوبية وادي مرّان بلد قديم اندثر ثم عمر في السنوات الأخيرة وكثر نزله وحسنت زراعته •

ومررنا بالرحي ــ جمع رحا ــ حزوم سود متصلة ، ثم هبطنا وادياً كثير السرح ــ شجر ــ يقال له « قطان » له ذكر في أشعار العرب، ثم بدت لنا نعوف حضن وشعوفه الشاهقة ؛ وعلى « ٦٥ » كيلاً مــن

---

(١) هذه المعالم وما بعدها وضحتها بأكثر من هذا في « معجم معالم الحجاز » •

المويه الجديد ، و « ١٣١ » كيلاً من الطائف الممنا برضوان : مقاه يفرق عندها طريق الخرمة يساراً فيلب حضناً من الشرق .

وقد لقينا من سفرنا ومواصلة السير نصباً وكانت الساعة الثانية بعد الظهر ، فتوقفنا وطلبنا من صاحب مقهى هناك مكاناً للمرأة فاعتذر عن وجود مثل هذا فجعلنا السيارة إلى جانب جدار فجلست جوزاء بينهما ، وطلبنا الغداء فقال : « كبسة دجاج » . قلنا : قد مللنا الدجاج طيلة هذا الطريق . فقال نذبح هريد[1] وتاخذون ربعه ونطبخه لكم . ووافقنا على ذلك فذبح الهريد، وجاءنا بيد منه يقول : «هذي وزعتكم»!

ان لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب !

قلنا له : هذه إذاً قسمة ضيزى . فنظر الرجل ـ بعين المغضب ـ ونادى صبياً عنده وقال له : هات اللحم كله ! وجاء به فوضعه أمامي وقال : « قسمه أنت » . وفعلاً قسمته أربعة أرباع بما في ذلك الرأس والكرش ثم قلت : اختاروا ثلاثة أرباع ، فصار .

ولكن الأخ رفض أن يطبخ لنا قسمنا مما اضطرنا للانتقال إلى مقهى مجاور .

بين رضوان والطائف

خرجنا من رضوان بعد الرابعة فأخذنا في ذلك السهل الفسيح الذي كان يعرف بالسي ، وكان المنظر المألوف منذ أن خرجنا من عفيف هو كثرة السيارات على جانبي الطريق منها المجعوفة على جنبها والمستلقية على ظهرها ، ومنها ما صارت كومة محترقة . وكان الشيخ راشد يحوقل ويتعوذ كلما رأى مثل هذا .

ثم بدا يسارنا ضليع أسود بارز في وسط سهل السي ، وهـذا الضليع يسمى «البرث» وقد حل في العلمية محل السي ، فيقال : جنوب

(١) جدي صغير .

البرث ، وشمال البرث .. الخ ، لكل هذا السهل ، ويظل البرث يساير الطريق حتى تصل المبعوث ، وهو مجمع أودية الطائف الشمالية يمر فوقه جسر ، سيرد معنا في أودية الطائف .

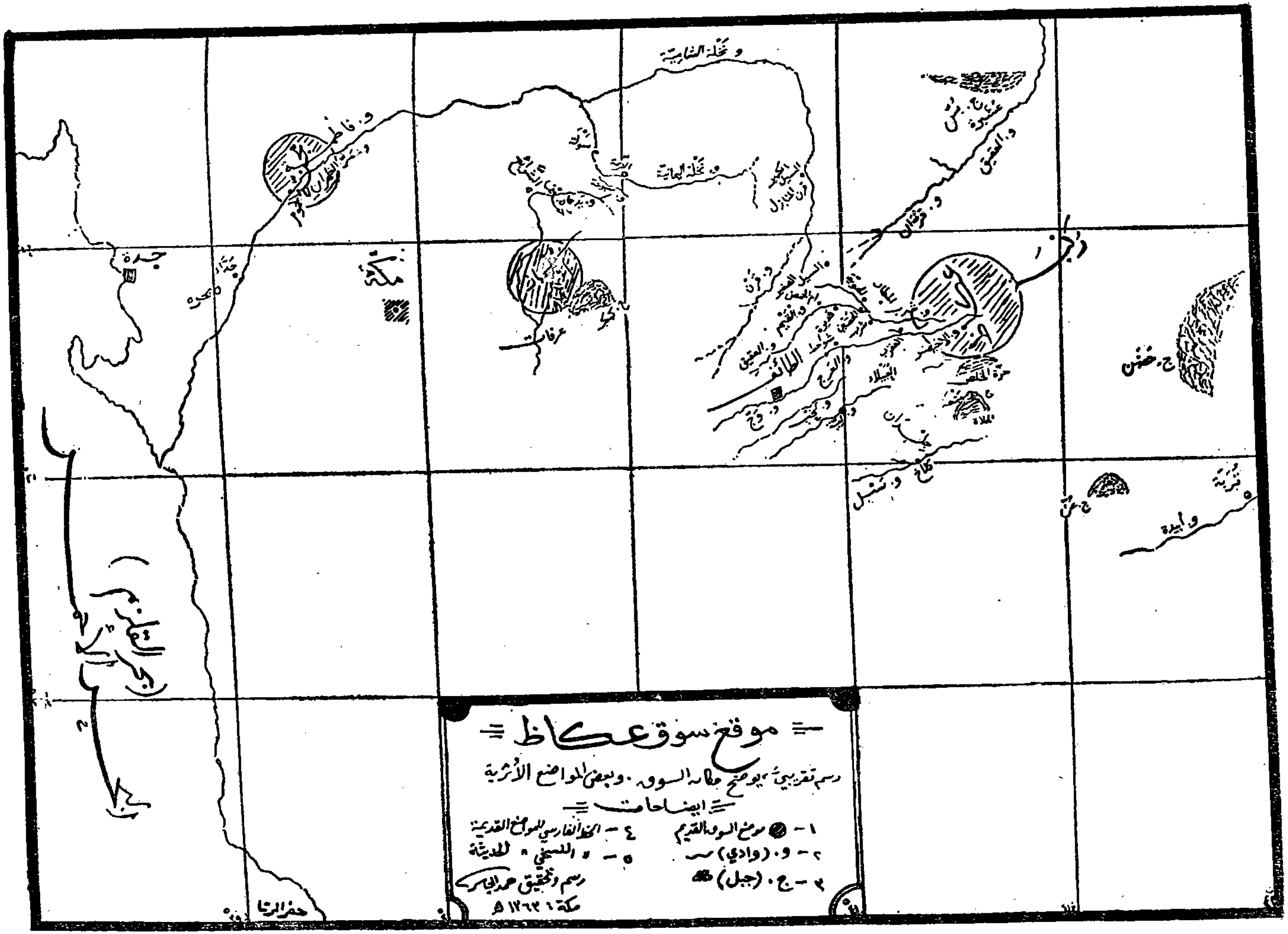
ثم جعلنا القرشية ـ بئر ـ يسارنا عن قرب ، ثم جعلنا خلصا عن يسارنا أيضاً وهو أكمة صغيرة بطرف وادي شرب من الشمال ، عليها منشأة حكوميه ، ووراءه بدت الحَريرة ثم سلسله جبال مدسوس التي تمتد جنوبا غربيا بين وادي شرب ووادي العرج ، ووراءها العبل والعبيلاء وصُلُبّة ، وكثير من هذه المعالم داخلة في موقع سوق عكاظ الذي يقع على ملتقى وادي شرب بوادى العرج وما حولهما ، فعكاظ ليس موقعاً صغيراً بقدر ما هو مساحة أرى أنها تمتد من العرفاء غرباً مروراً بخزاز وخلص والحريرة والأخيضر ثم العبل « العبلاء » . وبعد خلص جعلنا خزازاً يسارنا أيضاً ، وهو كخلص أسود لاطىء في وادي الريكة ، ويسمى المهيد ـ تصغير ـ فاذا مره وادي الريكة سموه وادي المهيـد .

أما عن يميننا فكانت أرض حرة ذات أضلع ضعاضع يسيل منها شمالاً وادي قران ، وغرباً شمالاً وادي مُلَيح المعروف اليوم بالسيل الصغير[1] .

ثم ألممنا بالعرفاء : عرف منقاد يجبعه الطريق على « ٣٥» كيلاً من الطائف ، ثم تهبط الريكة مباشرة من العرفاء : واديان يأتيان من الغرب من الحزوم الواقعة شمال الحوية ، وهذه الريكة الشمالية وبعده بقليل الجنوبية ، وهم يقولون : اليمانية والشامية . ثم مطار الطائف ، وبدا إلى اليسار بعيداً قرن : جبل أمغر محدد عال زلوج بجانبه آخر يسمى القرين ، تراهما حتى تقرب من الطائف يقعان على الضفة الغربية الشمالية لوادي لية هناك .

---

(١) استوفيت هذه المعالم وما جاورها في « معجم معالم الحجاز »


موقع سوق عكاظ
رسم تقريبي يوضح مكان السوق. وبعض المواضع الأثرية
ايضاحات
١ - موضع السوق القديم
٢ - و. (وادي)
٢ - ج. (جبل)
٤ - الخط الفارسي للمواضع القديمة
٥ - « النسخي « الحديثة
رسم وتحقيق حمد الجاسر
مكة ١٣٦٢ هـ
جدة
مكة
عرفات
الطائف
البحر الأحمر
(بحر القلزم)

الحوية

بلدة نهضت في السبعينات فصارت نموذجاً للقرية ، ثم أخذت في الانحسار ، بها قصر ملكي جميل وفلل عديدة ، وأرضها جميلة ،والاسم أصلاً للوادي ، يشرف عليها من الشرق جبل القنة ، تبعد « ١٨ » كيلاً عن الطائف على طريق الرياض • ثم الممنا بالطائف المأنوس •

والجدير ذكره أننا منذ أن تجاوزنا بلدة الغطغط قرب الرياض ونحن نسير في ديار قبيلة عتيبة العريضة الديار كثيرة الفروع •

عُتَيْبَة

قبيلة لم أستطع التوصل إلى سبب تسميتها ؛ والمعروف من فروعها اليوم يعود جله إلى هوازن ، والقول السائر مع العامة أو شبههم في تسميته قبيلة عتيبة يشبه السائر في تسمية هتيم[١]،فهم يقولون:انالنبي (ص)عندما حارب هوازن قال : لم تبق علينا غيرهذه العتيبة ــ تصغير عتبة ــ، وهذا قول ليس له سند ولا ذكر فيما نظرت من مراجع ، وأراه من استنتاجات العامة مطابقة للاسم •

فروع عتيبة :

تنقسم عتيبة إلى فرعين كبيرين هما : برقا ، والروقة •

---

(١) لدقائق فروع قبائل الحجاز وأخبارها وديارها ، تفاصيل وافية في كتابي « معجم قبائل الحجاز » •

بَرْقَا

وتنقسم برقا إلى : شَمْلة ، وبني سعد . وقال بعض الباحثين أن برقا من الأزد ، فقال : برقا بن الهنو : فخذ من الأزد[1] وهو وهم ، فتلك يرفا ـ بالمثناة تحت ، والفاء ـ وليست برقا ، فاشتبه عليهم . قال ابن دريد في الاشتقاق[2] : ومن ولد الهنو بن الأزد : حوالة ، وعَوْهى والهون ، ويَرْفَى . (مقصور) .

شَمْلَة

قبائل كبار متعددة البطون والفخوذ منها : الشيابين ، وأصلهم من سليم بن منصور[3].

والمقطة ، ويظهر أنهم من أقدم قبائل عتيبة ، ويسمونهم اليوم « ترثة عتابة » والألف هنا بدل الياء في لهجتهم ، وهي بطون متعدد .

والعصمة ، ونسبهم إلى قضاعة ، والله أعلم . والقثمة ، وقد أخطأ من ظن أنهم بنو جشم ، وأن القاف هنا بدل الجيم ، والخبير في لهجة بادية الجزيرة يعرف خطأ هذا القول .

والدعاجين ، والروسان . وجميع فروع هذه القبائل مفصلة في معجم قبائل الحجاز[4] .

وقال بعضهم : بل تقسم برقا الى : شملة ، وعيال منصور .

(١) معجم قبائل العرب عن تاج العروس .
(٢) الاشتقاق لابن دريد ص٤٨٧ .
(٣) **هم بنو شيبان بن مرة بن عبس بن رفاعة بن الحارث بن بهثة بن** سليم ، كانوا سدنة العزّى في الجاهلية .
(٤) لا زال مخطوطاً وهناك قول أصح عن شملة فانظره .

بنو سعد

هم بنو سعد بن بكر بن هوازن ، حضنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت ديارهم حول قرن المنازل بين الطائف ونخلة ، ولازالوا بها إلى اليوم غير أن القسم الأكبر منهم انتقل إلى جنوب الطائف فملكوا أودية : بسل ، ومظلّلة ، وبقران ، وما حولها ، ولهم هناك قرى عديدة، ولا اعتبار بقول القلقشندي : ولم يبق لهم حي فيطرق • فمثل قول القلقشندي هذا قاله كثيرون ممن هم بعيدون عن جزيرة العرب،فاذهبوا كنانة وبني سليم ، وغيرهم ، وهو وهم •

وتنقسم بنو سعد إلى فرعين عظيمين ، هما : الثبتة ، والبطنين •

ومن الثبتة : لمصة ، والصريرات • ومن البطنين : النفعة ، وطفيح•

ومنازل الثبتة مقسومة فمنهم حول السيل الكبير الى قرب الطائف، ومنهم حول بقران جنوب الطائف • أما البطنين ، فكل ديارهم جنوب الطائف ، وقد استوطن الطائف أحياء كبيرة من عتيبة •

الروقة

الروقة القسم الثاني من عتيبة ، وينقسم الى فرعين كبيرين أيضاً، وهما : المزاحمة ، وطلحة •

ومن فروع المزاحمة الكبار : العضيان ، والغبيات ـــ بالغين المعجمة ـــ والمراشدة ، وذوو عطية أو بنو عطية ، والأول أشيع ، والعوالي ، والثبتة « امراء الروقة » وأصلهم من ثبتة بني سعد •

ومن فروع طلحة الكبار أيضاً : العوازم ، والذيبة ، والدلابحة ، والحناتشة ، وذو زراق ، والسمرة ، وذوو حماد ، وبنو أسعد ، والحفاة

ومن الحفاة هؤلاء قسم كبير عرفتهم بنابلس في فلسطين بالأردن ، لهم فروع وقرى .

وكما سبق أن نوهنا تمتد ديار عتيبة من العارض بنجد حتى المشارف الغربية لحرة الحجاز عند رهاط ومدركة ، وإلى جنوب الطائف وشرقه ، وهي تحيط به من ثلاث جهات .

وفي كتب الأنساب : رَوْق: بطن من غزية، ومنازل غزية الحجاز.
وغزية : بطن من هوازن ، كانت ديارهم بسراة الحجاز .
فعلى هذا تكون معظم بطون عتيبة من هوازن .

٥

الطـــائف

أنا في الطائف استوحي الشعور ... ان في الطائف بعثاً ونشور
أحيت الأحداق في نرجسها ... وأعادت في الأقاحي الثغور(١)

الطائف ، المدينة الجميلة ذات الجو المنعش ، والهواء العليل ، والمناظر الخلابة ، والأشجار المثمرة ذات القطوف الدانية ، الطائف التي يهرع إليها كل ميسر اذا أخذت السمائم تلفح الوجوه ، وسرت حرارة القيظ في كل ما يحيط بالانسان ، هذه المدينة التي يشعر بالسرور والانشراح كل زائر يطؤ أرضها ، ويشعر بشيء من الأسى والتحسر كل من فارقها ، أين تقع ؟ وما طبيعة أرضها ؟

تقع الطائف في شرقي مكة مع ميل إلى الجنوب على قرابة تسعين كيلاً ، وجنوب غربي الرياض على « ٩٠٠ » كيل تقريباً . وترتفع مدينة الطائف « ١٦٠٠ » متر عن سطح البحر مما جعل جوها معتدلاً صيفاً ، وهي مصيف المملكة العربية السعودية ، وتنتقل إليها الوزارات في فصل الصيف ، وتصبح في هذا الفصل شبه عاصمة .

أرضها جبلية تتخللها الوديان الخصبة ذات المياه النميرة السلسبيل ، وهي مشهورة بجودة الرمان والعنب والمشمش ، وتقع في رحبة في تجويف من جبل الحجاز بين واديين ، هما : وادي وج من الجنوب ، ووادي العقيق من الشمال ، ولها أحياء جميلة حسنة التخطيط والمباني الحديثة ، ومن هذه الأحياء : قروى : في الغرب ، وشهار : في الجنوب ،

---

(١) محمود الخطيب .

والشرقية : في الشرق ، والشهداء : في الجنوب الشرقي ، وشبرة : في الشمال ، والعقيق : في الشمال أيضا ، ومن أحيائها القديمة التسمية ، حي السلامة : هو الحي الجنوبي •

سكــان الطــائف :

سكان الطائف جلهم يرجع بنسبه إلى قبيلتي ثقيف وعتيبة المحيطتين به يخالطهم افناء عديدة من الأشراف العبادلة الذين يملكون معظم أراضي القيم ولية وأسفل وج • أما الحاضرة فهم خليط ــ كسائر المدن ــ من المنصهرين من تلك القبائل والمتحضرين في موجة التحضر الحالية ، وكثير من أهل نجد العاملين في التجارة وغيرهم • ويقدر عدد سكان الطائف بسبعين ألفاً •

أودية الطائف

تحيط بالطائف ــ كما قدمنا ــ أودية فحول كثيرة المياه والزرع، خصبة التربة جيدة الانتاج ، من هذه الأودية :

١ ــ وادي لِيَّــه :

بكسر اللام وتشديد الياء المثناة تحت :

واد فحل يأخذ من شفا بني سفيان من ثقيف ، ومن شفا الطلحات من هذيل ، جنوب غربي الطائف ، ثم تتجمع روافـــده الأول جنوب الطائف فيمر على « ١٥ » كيلاً عن مدينة الطائف من الجنوب ، ثم يأخذ في الانحراف التدريجي إلى اليسار حتى يدفع في سهل السي عند

البرث شرق الطائف مع ميل إلى الشمال ، ويسمى أعلاه ليَّة ، وأسفله جليل ، ثم وادي بني عدوان قرب مفيضة في ذلك السهل ، وعليه قرى عديدة وسكانه : في أعلاه ثقيف[1] ثم عتيبة والأشرف ــ بين طريق الجنوب وقرن ــ ثم عدوان أسفل من ذلك .

روافد ليــة : وادي لية كأي وادٍ فحل تتعدد روافده ، ومنها :

١ ــ وادي عُرَضة : يأخذ من شفا الطلحات فيمر جنوب الطائف فيجتمع مع وادي خماس عند غدير البنات .

٢ ــ وادي خُمَاس : أعلاه للطلحات من هذيل ثم لعوف من ثقيف ويسمى أسفله حمى عوف يمر جنوب عرضة ويجتمع معه كما أسلفنا .

٣ ــ وادي الضيق : يأخذ من جبل دكا بشفا بني سفيان ثم ينحدر مشرقاً جنوب خماس ، ويسمى أسفله عمقان ، ويقال له حمى بني سالم من ثقيف ، ثم يجتمع مع وادي ثمالة في وادي شيحاط .

٤ ــ ثمالــة : واد سمي باسم القبيلة ، فاندثرت القبيلة وبقي الاسم للوادي ، يأتي من الجنوب من شفا بني عمر من ثقيف ، فيجتمع مع عمقان فيكونان وادي شيحاط فيجتمع شيحاط بلية تحت حصن مالك ابن عوف قائد هوازن يوم حنين .

٥ ــ وادي نخب : يسيل من جنوب الطائف عن قرب فيأخذ مياه القراحين وشعاب عديدة ثم يدفع في وادي لية من الغرب شرق الطائف،

(١) صدره قبل ذلك للأشراف الفعور .

وفيه مسجد الصادرة ، وفيه قرابة أربعة عشر قرية كلها لقبيلة وقدان من بني سعد من عتيبة •

وهناك روافد أخرى عديدة تتركها للاختصار •

٢ ـ وادي وج : هو وادي الطائف ، يأخذ أعلى مياهه من شفا هذيل من أعلى السراة جنوب غربي الطائف ثم يمر بجبل برد وقرى الوهيط ثم الوهط، ثم المثناة، فيلتف على الطائف من الجنوب والشرق، فاذا وصل الخرار بعد جبرة سمي وادي العرج، ويسري عليه هذا الاسم ماراً بشواحط ثم وادي الأخيضر ـ قرية هناك ـ ثم يتجمع مع وادي شرب الآتي فيكونان المبعوث : واد يمر تحت طريق الرياض فيذهب شمالاً في سهل ركبة ، وقد يتصل بعقيق عشيرة اذا فاض •

ومن روافد وج : وادي الحيط ـ بسكون الياء ـ ، ووادي القامة ، ووادي الضيحاء • وسكانه في أعلاه هذيل ، وبين جبل برد والطائف ثقيف ، أما العرج فتختلط فيه عتيبة والأشراف ، ثم عدوان أسفله ، ثم العصمة بعد ذلك ، من عتيبة •

٣ ـ وادي العقيق : ويميز بعقيق الطائف :

أعلى مساقط مياهه جبل الغمير الذي يشرف على الطائف من الغرب، ثم يأخذ على طرف الطائف من الشمال وفيه بعض أحيائه ثم ينحرف شمالاً متعرجاً فاذا مر فوقه طريق الرياض أطلق عليه « شرب » بفتح ثم كسر ، فيمر جنوب الحوية إلى أن يتصل بوادي العرج عند المبعوث •

وفيه عشرات القرى مثل : القيم، وأم الحمض، وقدَيرة ، وغيرها •

ومن روافده : وادي أطيلح : من جبل الغمير • ووادي مسرة :

من الغمير أيضاً وما حوله • ووادي الحوية • والريكتان : بين العرفاء والمطار • ولشرب هذا ذكر في كتب المتقدمين • وفي أيام الفجار ، وفي أسفله سوق عكاظ •

جبال الطائف

الطائف ــ كما قدمنا ــ منطقة جبلية ، وحولها عشرات المسميات من الجبال مما لا يتسع له المقام هنا ، غير أن هناك جبالاً مشهورة معروفة للجميع ، منها :

١ ــ جبل الغمير : تصغير غمر : هو الجبل الأسمر المشرف على مدينة الطائف من الغرب •

٢ ــ برد (بفتحتين): جبل يضرب الى الحمرة جنوب غربي الطائف على عشرين كيلاً تراه بارزاً وأنت تؤم الطائف من جهة الرياض ، وهو الحد الفاصل بين ديار هذيل وثقيف ، وكل مياهه في وادي وج •

٣ ــ جبل قرنيت : جبل ذو رأسين كغزالي الشداد أحدهما أطول من الآخر تراه بارزاً جنوب الطائف في شفا بني عمر من بني سفيان من هذيل ، ولما أن « قرنيت » اسم غريب على العربية فاني أظن أن أصل الاسم « قرنين » مثنى قرن ، ثم صحف على مر الزمن ؛ خاصة أن في الحجاز من يتشاءم باسم القرن • وهناك قول آخر • أنظر معجم معالم الحجاز •

٤ ــ دِمَة : بكسر الدال المهملة ، وفتح الميم : ليس كبيراً غير

أنه من أشهر جبال الطائف ، جبل أحمر يمر الطريق من الرياض إلى الطائف بسفحه الغربي ، تقترب منه اليوم أحياء الطائف ، يمر بسفحه الشرقي وادي وج وبالغربي وادي العقيق •

٥ ــ شمرخ : أسمر سامق شرق الطائف يرى رأي العين •

٦ ــ شرقرق : كشروری : جبل ليس عالياً ، عليه بعض أحياء البادية شمال الطائف على ضفة العقيق الشمالية •

قبيلة عدوان

هم بنو عدوان بن عمر بن قيس بن عَيْلان ، فهم قبيلة قيسية عيلانية ، منهم عامر بن الظرب حاكم العرب في عهدة ، وهذه ديارهم القديمة ، ثم حدثت بينهم حروب شتت شملهم فتفرقوا في الديار ، ومنهم اليوم عدوان بغور الأردن ، وبطون بالسراة متفرقة في القبائل ، وأبيات في حرب ، وغيرهم • وينقسم العدوانيون المقيمون اليوم بأسافل ليّة والعرج الى :

١ ــ العثامين : ذرية عثمان المضايفي وزير الشريف غالب ، ومنهم المضايفة نسبة للمضايفي أيضاً •

٢ ــ الحزامى (بالقصر) : سكان صُلّبة •

٣ ــ ذوو سليمان : أهل العبيلاء •

٤ ــ ذوو مسعود : سكان المجنب والفريدة •

وقد ذكر صاحب العبر ، ونقله عنه القلقشندي[1] ان في شمال

---

(١) نهاية الأرب ، وسبائل الذهب « عدوان » •

افريقيا أحياء من عدوان كانت ترحل مع بني سليم هناك ، وذكر لي أن منهم في مصر أيضا[1] .

وعدوان لا يزوجون بناتهم لغيرهم الا لبني هاشم ، ومن عدوان أيضاً الخماميش سكان الحوية وما حولها[2] .

بين الطائف ومكة المكرمة

وصلنا الطائف والشمس تكنع للمغيب فانزلت أبا راشد وابنته في بيت صهره زوج الجازي ، وبعد مشادة كرمية وحلف واستغفار وجر وعتعتة استطعت الانفلات من رفقة لا تمل ، ثم توجهت إلى الضيافة العسكرية حيث الفرش الوثير والطعام الكثير ! فقضيت الليلة في نوم عميق و « رحت في سبعة بحور » كما يقولون في أمثالهم .

استيقظت في صباح يوم الخميس الموافق ١٣٩٦/٢/٧ هـ ، وبعد الافطار توجهت إلى زيارة صديقي محمد سعيد كمال ، صاحب مكتبة المعارف ، ومؤرخ الطائف ، وهو رجل حسن البشر يهش ويبش ولا يكش ! ولذا كثر رواده وأصدقاؤه ، ولا أزور الطائف الا ويكون في برنامجي زيارة الكمال . وطبعي يجفل ممن لا يبتسم ولا يبش عند اللقاء ، ولذا يقل رصيدي من المتصفين بهذه الصفة غير المرغوبة .

وبعد شرب الشاي عند الكمال خرجت بعد أن أقسم يميناً أن أتغدى عنده ، فطلبت منه أن يؤجل ذلك الى أجل ففعل مشكوراً .

ويخرج الطريق من الطائف إلى الغرب جاعلاً مجموعة جبال شرقرق يمينه وجبل الغمير يساره ، ثم يهبط وادي أطيلح ثم صدور

---

(١) كتبت رحلة عن بلاد عدوان وفروعها ، نشرت في مجلة المنهل س ١٣٩٣ هـ ص ٧١ .

(٢) انفصل بنو خماش عن عدوان بسبب واقعة حدثت ، بينهم .

مسرّة ثم يمر على سد ثلبى على ثمانية أكيال ، ثم على جباجب فريعة فيها زراعة على كيل من ثلبى ، ثم يهبط بحرة قرن على كيل من جباجب ، ثم يجمع الطريق وادي المحرم على كيل من بحرة قرن أي على أحد عشر كيلاً من الطائف ، وهو ميقات الحجاج والمعتمرين المارين في هـذا الطريق ، ذلك أنه صدر وادي قرن « ميقات أهل الشرق » •

ووادي المحرم واد زراعي يأتي أعلاه من الحبلة ـ بالمهمله وثلاث فتحات ـ فيسمى وادي الغديرين ، لقريش ثقيف ، ثم وادي المحرم إذا وصل الطريق ، وسكانه هنا قبيلتا النمور وطويرق من ثقيف أيضاً ، ثم ينحدر الوادي فيسمى قرناً ثم السيل الكبير ، حيث يقطعه الطريق من مكة إلى الطائف ونواحي ركبة المار في نخلة اليمانية ، وهو الطريق القديم ، وفي هذا الطريق مر صلى الله عليه وسلم في غزوة الطائف •

فاذا تجاوز السيل الكبير سمي بعجاً ـ بضم الموحدة ـ ثم حراضاً ثم نخلة الشامية • فوادي المحرم هو جزء من نخلة الشامية •

وهو واد كثير البساتين والقرى ، ومياهه حسنة عذبة ، وهواؤه كهواء الطائف • ثم يصعد الطريق النقبة الحمراء ، وهي أصعب طلوع في هذا الجبل ، عقبة هي امتداد جبل الحبلة ومجموعته في الشمال ، ثم يرتاح منها في الهدأة •

الهَدأة

وهدة من الأرض على ظهر السراة على « ١٤ » كيلاً غرب الطائف، تحيط بها الجبال البارزة ، وتتكون من واديين رئيسيين :

الأول ـ وادي الخولة ـ بضم الخاء المعجمة ، وفتح الواو ـ وهم بطن من النمور من ثقيف : يأتي من جبلي شعار والحبلة فيسمى

وادي الأعمق ، ثم وادي الكمل ــ بضم الكاف وتشديد المميم ــ بطن من النمور أيضاً ، ثم وادي الخولة حيث يقطعه الطريق ، فيه قرى عديدة ومزارع وغابات من العرعر وأشجار السراة على جانبيه ، ثـم يجتمع بعد ذلك مع وادي الغربة فيسمى الوادي وادى الأغراف ، حيث ينحدر عميقاً بين الجبال متجهاً شمالاً فيأتيه من الغرب وادي مظلم ، فإذا اجتمعا سميت الأرض الشرقة ــ بفتح ، وسكون ــ والوادي تضاع ثم الكفؤ فيصب في نخلة اليمانية فوق يسوم •

والثاني ــ وادي الغربة ــ بكسر الغين المعجمة ، وفتح الراء ــ منسوب إلى أهله من ثقيف ، يقال أنهم مغاربة نزلوا هنا فحالفوا ثقيفاً : يأخذ من شعار ومن حزوم غرب جبل مكرس ثم يشرق حتى يجتمع مع وادي الخولة السالف ذكره ؛ وعلى غربية تقع المعالي : مدينة الهدآة الرئيسية، فيها الامارة والسوق ومركز الحركة ؛ والهدأة ذات جو جميل صيفاً كثيرة الفواكه ، غير أن مياهها شحيحة لوقوعها على ظهر الجبل ، وقد تقدمت عمرانياً وشقت فيها شوارع وسفلتت ، وترتفع الهدأة عن سطح البحر « ١٩٥٠ » متراً ، ومساحتها لا تتجاوز عشرة أكيال في مثلها ، ومنها ينحدر الطريق في جبل كرا إلى تهامة •

وسكان الهدأة ثقيف الآتي ذكرهم(١) •

جبال الهدأة :

في الهدأة أو تحيط بها خمسة قمم بارزة هي :

١ ــ الحبلة : بثلاث فتحات ، واهمال الحاء ، والموحدة : جبل

(١) كتبت عن الهدأة رحلة نشرت في المنهل س ١٣٩٥ هـ ، ص ٤٠٣ •

أحمر ضخم ينقاد من الشمال ـ في الهدأة[1] ـ إلى الجنوب حيث يتصل بقمم أخرى هي سلسلة السراة ، وتسيل مياهه الشرقية في وادي الغديرين إلى نخلة الشامية ، والغربية إلى وادي الضيقة فإلى نعمان ، وهو الحد الفاصل ـ هنا ـ بين ثقيف شرقاً وهذيل غرباً •

٢ ـ شعار : بضم الشين المعجمة : قمة تشرف على الهدأة من الجنوب الغربي ، يسيل منها الأعمق شرقاً ، والكر غرباً في نعمان ، وعلى شعار هذا منشأة حكومية •

٣ ـ دليم : بالتصغير : قمة حمراء بارزة وسط الهدأة تحيط بها أوديتها وقراها •

٤ ـ مكرس : عرف أحمر يشرف على الهدأة من الشمال ، على قمته موصلة تلفزيونية •

٥ ـ جبل هندى : قمة بين الهدأة ووادي المحرم ، وتعتبر النقبة الحمراء امتداداً لها ، مياهها الغربية في وادي الخولة ، والشرقية في وادي المحرم •

ثقيف

قبيلة عربيةقديمة لازالت في منازلها في الجاهلية،وهم أهل الطائف وما حوله من قديم الأزمان ، فاذا ذكر الطائف ذكرت ثقيف •

(١) اخترت اسم الهدأة بالهمز للتفريق بينها وبين وادي الهدة شمال مكة ، وهو أكبر منها وكان أشهر إلى أن شق هذا الجبل فصارت الشهرة لهذا ، ولأن الهمز هنا أصح وهو من التهديئة ، أي أن من يصعد هذا الجبل يكونفي حث وشدة حتى اذا تفرعه هدأ سيره وتنفس الصعداء •

وهم – مع خلاف في النسب – بنو ثقيف وهو قسي بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور من قيس عيلان . تمتد ديارها اليوم من شفا بني سفيان جنوباً إلى مشارف نخلة اليمانية شمالاً . لهم تأريخ طويل وحوادث جمة(١) لا يتسع المقام لها . وتنقسم ثقيف اليوم إلى سبعة بطون كبيرة هي :

١ – طويرق : تصغير طارق : ديارها أسفل وادي المحرم ثم تأخذ شمالاً إلى تضاع .

وكمعظم قبائل ثقيف تنقسم إلى : طويرق الحضر ، وطويرق البدو، ولكل منها فروع عديدة(٢) .

٢ – النمور : كجمع نمر : تجاور طويرقاً من الغرب ، ولهم معظم الهدأة ، وحماهم وادي الأغراف وما حوله « حمى النمور » ويقسمون إلى : نمور وادي المحرم ، ونمور الهدأة ؛ ولكل منهما فروع .

٣ – عوف : بطن متحضر في وادي لية ، وحماهم « حمى عوف » حول غدير البنات ، ومن أشهر فروعهم الغنم : بضم الغين المعجمة ، وتشديد النون .

٤ – بنو سالم : وديارهم جنوب لية في عمقان والضيق وما جاورها ، ومن فروعهم : آل مخضور ، وآل أحمد ، وآل نافع ، وآل عابد أو عبيد ، والجردات ، وآل زيد ، وآل عمرين – بكسر العين –، والحوتة ، والعياسي .

---

(١) لصديقنا محمد سعيد كمال كتاب عن ثقيف يعد الآن للطبع ، وقد يطبع قبل هذه الرحلة .

(٢) فصلت في معجم قبائل الحجاز .

٥ ــ سفيان : سكان الشفا المعروف باسمهم جنوب الطائف ، وقد نشرت عنهم رحلة في مجلة المنهل س١٣٩٢ ص (١٠٨٠) وينقسمون إلى : بني عمر ، وآل شريف •

٦ ــ الحمــدة : بطن قليل يسكن وادي القيم والمليساء قــرب الطائف شمالاً •

٧ ــ قريش : من أكبر قبائل ثقيف ، وقد جرى بعض الباحثين على تسميتهم : قريش غير الأشراف • أي غير قريش مكة ، وليس هناك ما يثبت أو ينفي هذا فقد يكونون من قريش الظواهر حالفوا ثقيفاً فكثروا هنا • ويقسمون إلى : قريش الحضر ، وقريش البدو •

وتمتد ديارهم من جبل برد صدر وج إلى وادي الغديرين فالهدأة عند شعار ، وكانت لهم حروب وغارات مع هذيل بسبب الجوار •

والغريب أن كلمة الحضر والبدو غير منطبقة عليهم ، ذلك أنهــم كلهم أو معظمهم ــ حضراً وبدواً ــ سكان قرى وأهل فلاحة •

ثقيف ترعة

وغير ما تقدم هناك قبيلة تسمى ثقيف ترعة ــ بكسر التاء وسكون الراء ــ على ما ينطقون ــ منفصلة عن ثقيف الأم وديارها بين ديــار بلحارث وبني مالك جنوب الطائف على قرابة « ٨٠ » كيلاً ، ومن أهم فروعهم : عَنْس ، وبنو يوسف • وقد يقال لهم ثقيف اليمن • غير أن رايتهم التي حضروا بها مهرجان الطائف كان مكتوباً عليها « ثقيف ترعة » •

ثم تنحدر الطريق كما قدمنا على جبل كرا فتمر بالمعسل،ماء عذب نمير في صدر وادي الكر ، ثم مركز الكر على « ٤٥ » كيلاً تقريباً من مكة ، ثم شداد بلد عثربة على «٣٧» كيلاً من مكة،فيأخذ الطريق في وادي

نعمان : الوادي الفسيح فيكون يمينه جبل كبكب الشهير عال منيف يرتفع قرابة « ٧٥٠ » متراً ، وعن يساره جبال سحار ورهجان والقرضة، ثم يصعد في ريع فيهبط على عرفة ، وعرفة غنية عن التعريف هنا .

وادي نعمان

كتبت بحثاً مطولاً عن وادي نعمان وقبائله نشر في المنهل س ١٣٩٢ هـ ص ٨٤٦ . وهذا مختصر منه : يأخذ نعمان من أعلى السراة عند الهدأة فتجتمع أول صدوره تحت الكر وهي أودية أربعة : الضيقة من الجنوب ، والكر يتمثناه الطريق من الشرق ، ثم يعرج ــ بكسر الراء ــ من شفا زليفة يمين الطريق ، ثم وادي الشراء : يلابط جبل كبكب من الشرق ويسمى اليوم وادي الكباكبة نسبة إلى سكانه من هذيل المذكورين بعده .

ثم ينحدر الوادي مغرباً فترفده من اليسار على التوالي : عرعر ، وصار ، ورهجان على « ٢٩ » كيلاً من مكة ، ثم الهاوتان قرب عرفة .

أما من يمين الطريق فأهم الروافد وادي الوصيق : بفتح الواو . وهو الحد بين هذيل شرقاً وقريش جنوباً .

ثم يستمر الوادي مغرباً حتى يجتمع مع عرنة جنوب غربي عرفة فيطلق على الوادي عرنة ــ بالنون ــ الى البحر ، وعلى مصبه يقع ميناء الشعيبة .

هُذَيل

احدى القبائل العربية العريقة التي لا زالت في مساكنها الأولى مع تقلص بسيط من أطرافها ، وهم بنو هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان ؛ ولا اعتبار بقول من قال : تفرقوا في الممالك

فلم يبق لهم حي يطرق،وهي أقوال درج عليها ابن خلدون والقلقشندي، بينما كانوا يكتبون من ديار بعيدة عن الحجاز فادعوا محو قبائل الحجاز كلها بدون علم منهم أكيد •

وتمتد ديار بني هذيل اليوم من مشارف وادي يلملم[1] الشمالية ممتدة على السفوح الغربية للسراة شاملة أودية دفاق وضيم وملكان[2] ونعمان وحنين والنخلتان اليمانية والشامية ، ووادي الزبارة إلى شمال ذلك ، وفي الشرق تتداخل مع قبيلة ثقيف في حدود متعرجة ، فتقترب من الطائف في الجنوب الغربي الى مسافة عشرين كيلاً عند جبل برد ، وقريباً من ذلك شمال الهدة في الشرقة ، ثم تحدها قبيلة عتيبة عند السيل الكبير « قرن المنازل » وفي حراض ، والزرقاء إلى حرة المقطة •

أما من الغرب فتحدها قبيلة بني شعبة – بطن من كنانة – في أسافل يلملم وصدور إدام والبيضاء ، ثم خزاعة في ملكان ، ثم قريش قرب عرفة والمُغَمَّس ثم تميل ديار لحيان خاصة من هذيل على امتداد طريق اليمانية إلى مكة على طرفة الشمالي الى مر الظهران وفج الرحى •

وتنقسم هذيل اليوم إلى قسمين كبيرين : المسودة ويقولون لهم « بني » لأن كثيراً من قبائل هذا القسم يقال له بنو فلان كما سيتبع ، والفرع الثاني جميل ، وكثيراً ما يقولون : هذيل اليمن وهذيل الشام •

وتكاد تكون معظم بطون « بني » من هذيل الشام ، وهم سكان شمال جبل كبكب ، ومعظم بطون جميل من هذيل اليمين ، سكان نعمان وجنوبه •

---

(١)و(٢) كتبت عن هذه الأودية بحوثاً موسعة في مجلتي العرب والمنهل بين عامي ١٣٩٢ هـ و ١٣٩٥ هـ •

١ ـ المسودة : بكسر الميم :

ويروي لي أحد شيوخهم أنهم ينقسمون الى :

آ ـ بني : ومنهم : لحيان ، وبنو عمير ، وبنو مسعود ، والمطارفة، وهذه البطون تمتد ديارها من شمال مكة الى قرب الضريبة الميقات المعروف .

ب ـ بنو صليم « الصلمان » وهم الحنارشة ، وعقيل ، سكان حنين وما حوله ؛ والسعايد ، سكان نخلة اليمانية ، ومن فروعهم : الستيرات وذوو علي وذوو منير والحبالصة . والسواهرة ومعطان يخالطون السعايد .

ومن أخلاف هذه البطون : الزواهرة ، سكان سولة : فرع من زبيد من حرب نزلوا هنا فدخلوا في هذيل . والقناوية ، أهل الزيمة : يقولون أنهم هاشميون ، جاءوا من قنا على ساحل عسير . والحكمان ، في نخلة الشامية : جاءوا من بني حكم بنواحي جازان فانضموا إلى هذه القبيلة . ومن المسودة قبيلة زليفة ؛ بضم الزاي ، وبالفاء . يسكنوا الشفا شمال الهدأة .

٢ ـ جميل :

تكثر في هذا الفرع البطون التي يصعب ربطها ببعضها ، فاذا سألتهم قالوا : بنو فلان وبنو فلان ولاء . أي بلى بعضهم بعضاً ، ولا يسمون رابطتهم الا نادراً ومن هذه البطون : السراونة في نعمان : بطون عديدة[١] الكباكبة : نسبوا الى كبكب ، وروى لي أحدهم في خبر يطول : انهم أشراف أتو من المغرب[٢] ، والحساسنة ، سكان وادي

---

(١)و(٢) أتيت على تفصيلات لايتسع لها المجال هنا في « معجم قبائل الحجاز .

يعرج والشرقة ، القرّمح ، ويقال لهم : العلويون ، ومنهم أحد عشر بطناً : يسكنون جبل عروان ومشارف يلملم الشمالية ، والندويون « بنو ندا » يسكنون ضيماً وما حوله ، ودعد : يسكنون ملكان وما حوله ، والجوابرة : يسكنون رهجان ، وبنو كعب وإياس بين رهجان والضيقة ، والطلحات : سكان أعلى وج ، وبنو زيد حول شعار ، والسوالمة جيران الطلحات من الناحية الغربية ؛ وهناك بطون عديدة أخرى • والصواب أن بني زيد والسوالمة هم من المسودة لا من جميل• وذكر صاحب « قلب جزيرة العرب » أن كلاً من كعب وإياس من المسودة •

• • •

٦

في مكّــة المكرّمـة

ومن عرفات تهبط وادي عرنة ــ بالنون ــ وهو واد فحل يأخذ أعلى مياهه من شفا زليفة وحنين ومياه كبكب الغربية والصفاح وجبال مكة الشرقية ، ثم يمر غرب عرفة فيجتمع مع نعمان المتقدّم بُعيد عرفة ــ بالفاء ــ فيأخذ الوادي هذا الاسم الى البحر .

المجـاز

وعلى هذا الوادي من الشرق يقع سوق « ذي المجاز » الشهير من أسواق العرب ، شعب يسيل من جبل كبكب من جهته الغربية فيدفع في وادي عرنة من الشرق عند التقاء وادي البجيدى وحنين على ثمانية أكيال من علمي طريق نجد المار باليمانية ، وطول هذا الشعب قرابـة عشرة أكيال ، وعلى بعد ثلاثة أكيال إلى داخله ، أي على بعد أحد عشر كيلاً من العلمين الآنف ذكرهما ، وعلى ستة وعشرين كيلاً شرق المسجد الحرام ، وأربعة عشر كيلاً شمال عرفات توجد خرائب كانت مبنيــة بالحجر الجاف « بدون مؤنة » يظهر أنها كانت تسقف وقتياً ، ربمــا بالشمال ونحو ذلك ، قائمة على حزم مرتفع ، وتوجد بالقرب منها بئر دائرية الفوهة ، وهذا هو ــ حتماً ــ سوق ذي المجاز المشهور ، الذي كان يقوم ثمانية أيام قبل عرفة[1] .

ثم تخرج غرباً ماراً بالعلمين ــ حد الحرم ــ وعن يمينك جبل الخطم المنقاد يتصل به من الشمال جبال الشعر والطارقي ، وإلى اليمين خلفك ينتصب جبل سعد الذي يشرف على عرفة من الشمال الشرقي ،

---

(١) عن بحث مطول نشرته في المنهل س ١٣٩٢ ص ٦٦٠ .

ومن ورائه ترى قمم كبكب ، فاذا سرت غير قليل يأتيك من اليمين وادي السقيا ، ثم تدفع في المأزمين ، ويسمى أحدهما الأخشب الكبير وهو الأيمن ، يتصل شمالاً بجبل المرار ثم ثبير النصع ، والثاني الأخشب الصغير وهو الأيسر ، فاذا أفضت فأنت في المزدلفة ، رحبة بين الجبال من الشرق الأخشب الكبير والمرار والنصع ، ومن الجنوب جبل مكسر أسمر مذروب • ومن الغرب جبال منى ، والحد بينها وبين منى وادي النار ، والجبل العالي المشرف على منى من الشمال هو ثبير الأثبرة ، وقمته غيناء ، ويقال : ثبير غيناء ، ويعرف اليوم بجبل الرخم ، أما الجنوبي ، فكان يعرف بالصابح ، واليوم يقال له : جبل منى اليماني • ونهايته من الشرق « دقم الوبر » ثم تتجاوز العقبة فتكون في مجر الكبش ، وهو قسم من وادي المحصب ، ويشرف عليه من الشمال جبل الغسالة ، فاذا دفعت فأنت في « الاقحوانة » وقسمت اليوم إلى حي الروضة ، وحي الششة وغيرها •

ثم يتكون أعلى وادي مكة ، وفروعه الأولى تأتي من جبال : الطارقي وثَقَبَة وثبير الأثبرة وحراء ثم تتجمع عند البياضية فينحدر متعرجاً ، يمينه جبال : أبي دلامة ثم أذاخر ، ثم قعيقعان ثم ثبير الزنج المعروف بجبل المسفلة • أما من اليسار فجبال الخنادم وأبو قبيس وجبل خليفة ، وجبل الميثب ، وقرب هذا الجبل يجتمع بوادي مكة واديها الثاني « وادي طوى »(١) وهو واد يأتي من سفوح جبل اذاخر الغربية فيمر غرب قعيقعان ، وفيه بئر طوى الشهيرة ، واحياء كثيرة من

---

(١) عن تفاصيل أوفى عن هذه الأودية ـ انظر المنهل س ١٣٩٢ هـ ص ٥٥٤ وعن جبال مكة كتبت عدة بحوث أحصيت فيها « ١٦٠ » مائة وستين جبلاً ، غير أن العرب توقفت قبل نشر تلك البحوث أو بعضها ، وكل هذه الجبال موضحة في « معجم معالم الحجاز » ومحددة بدقة •

مكة كالعتيبية وجرول ، والتنضباوي والحفائر وغيرها • ووادي مكة المار بالمسجد الحرام يسمى وادي ابراهيم ، ومدفعه في عرنة من الشمال، وليس عند الشميسى كما توهم بعضهم •

والوادي الثالث في مكة هو وادي فخ: يأخذ من جبل حراء وقرب علمي طريق نجد وجبل الستار ثم يدفع شمال الواديين الآنفين ، وكان يسمى أعلاه « مكة السدر » ثم يسمى فخاً ، وفيه الوقعة المشهورة بين العلويين والعباسيين سنة ١٦٩ هـ ويسمى هذا الموقع الشهداء[١] ، فاذا تجاوزه كان يسمى « بلدح » ثم يدفع في مر الظهران ماراً بالشميسى « الحديبية » •

وعليه أحياء : الزاهر والزهراء والنزهة وأم الجود ، وفي أم الجود مقر رابطة العالم الاسلامي ونادي مكة الأدبي « الثقافي » وأقيم هناك فندق كبير •

ازدهار مكة

ليس هنا مجال لذكر تأريخ مكة ، فتأريخها يملؤ مجلدات ضخام ، انما نذكر نبذة عن تطورها في عصور عديدة ؛ ومكة هي قبلة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وهي المدينة الأولى لديهم بلا منازع ، فما منهم من يتمنى ويصر على رؤية مدينة في الدنيا كمكة ، شرفها الله •

ويقول المؤرخون : ان أول من بنى الكعبة المشرفة ابراهيم الخليل عليه السلام •

وقيل بل كان أبناء آدم قد بنوا البيت من الطين ؛ ولما فرغ ابراهيم من بنائه أمره الله أن يؤذن في الناس بالحج • فقال : ربي ، وما يبلغ

(١) انظر المنهل س ١٣٩٢ ص ٥٥٤ •

آذاني ؟ أو كما قال . فقال الحق جلا وعلا : أذن وعلي البلاغ . فلم يبق على ظهر الأرض من لم يسمع صوت ابراهيم .

وظل الناس يحجون إلى هذا البيت وما يجرؤ أحد أن يبتني في هذا الوادي حتى جاء قصي جد رسول الله الخامس فجمع قريشاً في مكة واستولى على مفاتيح البيت من خزاعة فبنى أول دار للسكن حول البيت وجعل فيها اجتماع قريش فسميت دار الندوة ، وكان الناس يظنون أن من يبني بيتاً بجوار بيت الله قد تصيبه قارعة ، فلما رأو قصياً لم يصب بأذى سارعوا إلى البناء فقامت من يومها مدينة مكة المكرمة قبل ما يقرب من مائتي سنة قبل البعثة النبوية . وكانت مقسمة أرباعاً لقريش ، فلما جاء الاسلام أخذت القبائل حولها ترغب في التحضر فكان يخط لهم فيسكنون ، فلما فتح الله على المسلمين بلاداً واسعة أخذت مكة تزدهر حيث تضاعف عدد الحجاج فتضاعف دخل أهلها فأخذ في عمارتها ، حتى أن عيون هذا البلدالقاحل بلغت العشرين عيناً ، ووصل عمرانها إلى قرب جبل حراء .

ثم توقف هذا النمو زمناً طويلاً لانصراف أهل الثروة عنها ، والناس تباع السلطان ، غير أنها ظلت من أعمر مدن الجزيرة العربية لتبلغ أهلها بموسم الحج وما يدرّ من موارد . ولما توحدت جل أجزاء الجزيرة العربية في منتصف هذا القرن ظلت مكة عاصمة المملكةالعربية السعودية ما يقرب من ثمان وعشرين سنة ، فازدهرت وتقدمت على كل مدن المملكة ، وتشهد اليوم تطوراً ما شهدته من قبل وخاصة في مشاعر الحج حيث أقيمت الجسور المعلقة العملاقة وشقت الشوارع وعبدت ، وأخذت تتسع عمرانياً ، ويقدر عدد سكانها اليوم بنحو أربعمائة ألف ، رغم أن الكثيرين هجروها خلال العشرين سنة الماضية إلى جدة والرياض حيث فرص العمل صارت أكثر، وطرق الاثراء أسهل.

وستظل مكة مدينة الاسلام وعاصمته ومهوى أفئدة المؤمنين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وطوبى لمن أكـرم أرضاً أكرمها الله وخصها ببيته العظيم ، وطوبى لكل من ساعد في اعمارها وازدهارها •

قريش

واذا ذكرت مكة ذكرت قريش ، فهي القبيلة التي يذكرنا اسمها دائماً اسم مكة ، كانت قريش متفرقة في القبائل حتى جاء قصي فجمعها فسمي مجمعاً فأنزلها مكة فكان منهم سكان ما حول الحرم فسموا قريش البطاح ، ومنهم بنو هاشم وبنو أمية ، وهم بنو عبد مناف ، وبنو زهرة وبنو مخزوم وبنو تميم وبنو عبد العزى ، وبنو عبد الدار ، وبنو جُمح وبنو سهم ، وبنو عدي بن كعب • ويقال لعامتهم : بنو كعب بن لؤي•

وقريش الظواهر هي : قبائل بني عامر بن لؤي بن يخلد بن النضر•

وفي سبب تسميتهم بقريش خلاف ، غير أن جمهور النسابين أن أبا قريش هو النضر بن كنانة بن خُزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر الخ كانت لقريش السيادة على البيت فاحترمتها القبائل واجلتها ، وخرج فيها عظماء كهاشم وابنه عبد المطلب ، ثم توج الله هذا المجد التليد باختيار محمد صلى الله عليه وسلم من قريش ثم من بني هاشم •

وفي الاسلام زاد عز قريش حتى قيل أن العرب لا تسلم قيادها الا لقرشي ، فحاول البعض الانتساب زوراً لهذه القبيلة طمعاً في السلطة •

ومن قريش الخلفاء الأربعة ، وملوك بني أمية وبني العباس ،

وتفرقت بطون قريش في الأمصار وخاصة أبناء الصحابة والهاشميين الذين كان يسهل عليهم تسلم القيادات الروحية حيث حلوا ، واذا استثنينا الأشراف من قريش فان الموجود منهم اليوم حول مكة قليل جداً، وهناك قريات صغيرة منها قرية العُجرة شمال غربي عرفة، وأخرى جنوب غربي مكة عند جبل لبين ، وبويتات لأبي السمن شمال عرفة قرب سلع[1] ، أما ديارهم فهي عرفة وشمالها إلى الصفاح ، وغربها إلى جبل ثور ، مع تداخل أملاك الأشراف معهم . أما الأشراف وهم فرع من بني هاشم من قريش فانقبائلهم الآن عديدة الفروع كثيرة العدد[2] .

خزاعة

قبيلة عربية عريقة قديمة ، ارتبط اسمها بمكة مرادفاً لاسم قريش، وقيل : إن خزاعة قبيلة أزدية ، وهم بنو عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو مُزْيقِياء ، وقال آخرون : انهم مضريون ، وان عمراً ابن لحى ابن قمعة بن الياس بن مضر، والخلاف يطول ذكره هنا[3] نزلت خزاعة حول الحرم بعد تهدم سيل العرم فاستولت على مكة ومفاتيح البيت حتى أخذها منها قصي ، فحاربت خزاعة قريشاً فانتصر القرشيون فطردوا خزاعة الى مر الظهر ؛ وفي أول الاسلام حالفت خزاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ضد كنانة وقريش .

خزاعة اليوم :

تنقسم خزاعة اليوم إلى: خزاعة الوادي،ويسكنون قرية تعرف بدف خزاعة في الطرف الجنوبي من مر الظهران شمال غربي مكة .

---

(١) هو غير سلع المدينة .

(٢) جاءعلىجلها صاحب الرحلة اليمانية الشريفشرف البركاتي، وفصلت بطونهم في « معجم قبائل الحجاز » .

(٣) بحثته مطولاً في معجم قبائل الحجاز .

وخزاعة البر ، وتسكن أسافل أودية عرنة وملكان[1] وما جاورها جنوب غربي مكة ، وتنقسم الى بطنين : طلحة ، والصقارية • وهم بادية رحل استوطن معظمهم مكة في موجة الهجرة التي تجتاح البادية اليوم[2]

ونزل على خزاعة في ديارهم بطن من البقوم يقال له « الموركة » فرع من موركة البقوم • ثم نازعوهم الديار فكانت دعاو ومرافعات ، ونزل إليهم أيضاً « المجانين » فرع من لحيان من هذيل ، وأصلهم من حرب دخلوا حلفاً في لحيان[3] فاجتدعوا من ديار خزاعة قسماً ، ولم يبق اليوم لخزاعة من الأرض الا ما عمروا بأيديهم ، ولديهم وثائق قديمة تحد ديارهم شمالاً بدرب الحب « الطريق بين مكة وجدة » وجنوباً إلى قرب وادي البيضاء ، وشرق درب المعرفات ، وغرباً ديار العرامطة الاشراف عند خثارق وجبل عَمَر وسطاع •

كنانة

احدى قبائل الحجاز العريقة ، كانت عند بزوغ فجر الاسلام تمتد ديارها من بدر في وادي الصفراء شمالاً إلى قرب جازان جنوباً ، ممتدة على الساحل • وهم : بنو كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر•

من بطونها : قريش المتقدمة ، وعبد مناة ، وبنو مالك ، وبنو الليث ، وبنو ضمرة وكانت منازلهم وعامة بني بكر بالأبواء والبزواء وما حولهما ، وبنو بكر بن عبد مناة بن كنانة منها : ضمرة ، والليث وغفار ، ومن كنانة بنو فراس ، كانوا يسكنوا الكديد قرب خليص ،

---

(١)و(٢) كتبت بحثاً مطولاً عن وادي ملكان في مجلة العرب م٩ ص٥٠٨

(٣) فصلت قصة ذلك وفروعهم في كتاب « نسب حرب » •

وهم الذين يقول فيهم الامام علي رضي الله عنه : وددت أن لي بكم ألفاً من بني فراس • يعني جيشه ، ومن بني فراس ربيعة بن مكدم حامي الظعينة[1]• وكان من كنانة بنو شعبة حول إدام •

وتفرقت كنانة في الاسلام ، وحلت قبيلة حرب ديار كنانة الشمالية ـ بين مكة والصفراء ـ فاندمجت أحياء من كنانة في حرب •

كنانة اليوم :

أكبر بقايا كنانة اليوم قبيلة بني شعبة : قبيلة تقع ديارها جنوب مكة تجاور هذيلاً من الجنوب الغربي ، ممتدة من وادي إدام شمالاً إلى ما وراء الليث جنوباً •

ومن فروع بني شعبة :

١ ـ الحجادلة : سكان ادام إلى سعيا ، ومنهم : آل راشدوالجملة، والسليم •

٢ ـ عَضَل : سكان وادي مركوب « ١٢٧ » كيلاً جنوب مكة•

٣ ـ الزنابحة ـ بالموحدة قبل الحاء المهملة ـ : سكان وادي الغالة قرب الليث •

٤ ـ رحمان : في أطراف وادي الليث الشمالية •

٥ ـ الجُبرة : سكان بلدة غميقة وما جاورها •

٦ ـ بنو شهاب : شرق وجنوب شرقي الليث[2] •

وليس لكنانة هذه صلة بكنانة زهران ، فتلك ثابت نسبها في زهران قديماً[3] •

---

(١) تحدثت عن بني فراس في مجلة العرب م٧ ص ٣٧١ •

(٢) لتفاصيل أوفى انظر العرب م ٩ ص ٦٤١ •

(٣) ولا زالت هناك قبيلة تحمل اسم كنانة بأسفل وادي حلى ، ينتسب أفرادها كناني ، وحلى كان من ديار كنانة قديماً ، كما يوجد فرع بهذا الاسم في بني شهر ، ولا أعلم صلته بكنانة العدنانية ، وديار بني شهر قريبة من ديار كنانة•

الختام

ليست هذه الرحلة تقصياً للنصوص ، ولا سجلاً تاماً لما هو كائن، انما هي مشاهدات وانطباعات وعرض لمعالم عزيزة من بلادنا لم تحظ – حتى الآن – بالدراسة المركزة •

ولم أقل في هذا الختام :

وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

بل لا زالت تحمل عصى الترحال ، والحياة رحلة قد تكون طويلة وقد تكون قصيرة • وواصلت هذه الرحلة البرية من مكة إلى تبوك عن طريق المدينة ، غير أنني سبق أن كتبت رحلتين عن هذا الطريق وما حوله ، هما :

« في طريق الهجرة » و « في شمال الحجاز والأردن » فأغنى ذلك عن الاعادة ففي كثير من الاعادات الملل وضياع الوقت •

مكة المكرمة

في ١٣٩٦/٢/١٥ هـ

مراجع البحث

١ – البيان والتبيين للجاحظ
٢ – ديوان الحطيئة
٣ – ديوان الأعشى
٤ – السيرة النبوية لابن هشام
٥ – أيام العرب في الجاهلية
٦ – أخبار مكة للازرقي
٧ – شفاء الغرام للفاسي
٨ – الاشتقاق لابن دريد
٩ – معجم البلدان لياقوت الحموي
١٠ – معجم ما استعجم للبكري
١١ – مدينة الرياض للجاسر
١٢ – المجاز لابن خميس
١٣ – في سراة غامد وزهران للجاسر
١٤ – معجم معالم الحجاز للكاتب ، معد للطبع
١٥ – معجم قبائل الحجاز للكاتب ، مخطوط
١٦ – مجلة العرب للجاسر
١٧ – مجلة المنهل للأنصاري
١٨ – معجم قبائل العرب لعمر رضا كحالة
١٩ – نهاية الأرب للقشقلندي
٢٠ – المنجد
٢١ – القاموس للفيروز أبادي
٢٢ – سبائك الذهب للسويدي
٢٣ – مخطوطة للاستاذ محمد سعيد كمال
٢٤ – الاكليل للهمداني
٢٥ – معجم الادباء لياقوت
٢٦ – الرحلة اليمانية للشريف شرف البركاتي
٢٧ – خرائط الرياض والطائف ومكة
٢٨ – سمط النجوم العوالي للعصامي

دليل الموضوعات العامة